ستيفان زفايغ

سيغموند فرويد

الشِّفَاءُ بالرُّوحْ

ترجمة

إسكندر حمدان



ترجمات إبداع



ستيفان زفايغ

سيغموند فرويد

الشِّفاء بالرُّوح
وَحَدِيثٌ عَنْ أَعْمَاقِ النَّفْسْ

ترجمة : إسكندر حمدان

الكتـــــــــاب: سيغموند فرويد: الشفاء بالروح
اسم المـــؤلف: ستيفان زفايغ
تصميم الغلاف: ريهام البلتاجي
ترجمة الكتاب: إسكندر حمدان
الطبعــــــــة: فبراير 2021
رقـم الإيـداع: 3071 / 2021
التر
المو



dreidibrahim@gmail.com

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

العنوان: 10 ش هدى شعــــراوي، وســـط البـــلد، القاهـــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com


dar_ibda3


ibda3-tp


dar_ibda3



ستيفان زفايغ

سيغموند فرويد

الشِّفاء بالرُّوح
وَحَدِيثٌ عَنْ أَعْمَاقِ النَّفْسْ

ترجمة : إسكندر حمدان




MOHAMED KHATAB

ستيفان زفايغ: الكاتب الحالمُ بعالمٍ دون حدود

رؤية عيد إبراهيم عبدالله

ما بين ٢٨ نوفمبر ١٨٨١ و٢٣ فبراير ١٩٤٢ حقق ستيفان زفايغ: القاص، والشاعر، والروائي، والمسرحي، وكاتب المقالات: شهرة ذائعة الصيت، وأضاف للتاريخ الأدبي والخيالي قِيمةً يقف أمامها القارئ بانبهارٍ وإجلال.

زفايغ ينتمي لأصول يهودية ثرية: إذ كان والده يعمل في تصنيع الأنسجة، وتنتمي والدته لأسلاف يعملون في الصرافة والمال، بدأ منذ نعومة أظافره في كتابة القصائد والمقالات وإرسالها إلى العديد من المجلات الأدبية، وقام بمراسلة الأدباء المشهورين آنذاك، كما قام بكتابة مجموعة من المقالات تتناول مخطوطات جوتة، وبتهوفن، ثم اتسعت هذه المقالات لتشمل مخطوطات كتبها موتسارت بخط يده.

وحصل زفايغ على شهادة الدكتوراة من جامعة فيينا في عام ١٩٠٤ في تخصص الفلسفة، فقط بعد ثلاث سنوات من نشر أول كتاب له في حياته وهو عبارة عن "مجموعة شعرية" نشرها في عام ١٩٠١، إلى



جانب نشره العديد من المقالات المتنوعة الموضوعات في أشهر الجرائد في فيينا في ذلك الوقت وهو جرنال نو فري، والذي كان يرأس تحريره ثيودور هرتزل، القيادي البارز في الحركة اليهودية.

جَابَ زفايغ العديد من الدول الأوروبية قبل الاستقرار في سالزبورج في النمسا في عام ١٩١٣، وفي عام ١٩٣٤ نفاه النازيون، مما دعاه إلى الهجرة إلى انجلترا، ومنها إلى البرازيل في عام ١٩٤٠ عن طريق نيويورك.

وصل زفايغ إلى نقطة في حياته، رغم إعجابه ببلد منفاه الاختياري، البرازيل، إلّا أنّ نظرته التّشاؤمية لمستقبل العالم، وظنّه أنّ الأمر سينتهي بالتّحالف النّازي لغزو العالم بأسره، دفعه مع الأخبار التي كانت تَرِدُه آنذاك، بعد أن أنهى كتابة آخر مؤلّف له، "عالم الأمس"، وهو بمثابة وصيّة ووداع، ليُقرّر الانتحار رفقة زوجته التي تصغره بسبع وعشرين سنة، وذلك يومًا بعد أن أرسل بمخطوطه إلى مُحرِّره عبر البريد؛ والذي كان سببه ما شهده من انهيار السلام العالمي وويلات الحرب العالمية الثانية؛ إذ دخل هو وزجته غرفة نومهما، وابتلعا العشرات من الأقراص المنومة، وتعانقا سويًا حتى ماتا على هذه الهيئة، لم ينس زفايغ كلبه أيضًا؛ إذ أطعمه مجموعة من الأقراص المنومة، بعد أن شكر حكومة البرازيل على حسن الضيافة والرعاية بريديًا.

ولاشك أن انتحاره هذا يعتبر تصرفًا سلبيًّا منه بشكل كبير؛ أنهى به حياة كاتب؛ قلما حقق غيره هذا الثراء الأدبي والشهرة الكبيرة؛ إذ بين الحربين العالميتين كان زفايغ هو أكثر الأدباء الذين تمت ترجمت أعمالهم إلى عدة لغات في هذه الفترة.

وكان زفايغ يحلم بعالم دون حدود، وعالم دون معاناة، مما دعاه إلى القيام بدراسة مستفيضة للسلوك البشري، والفلسفة الحياتية والروحية والجنسية للبشر، مما جعل القارئ في كتابات زفايغ يقف بشكل كبير على صورة واضحة المعالم للإنسان في هذه الفترة، وللإنسان الذي يحلم به زفايغ.

إن المتابع للسيرة الأدبية لزفايغ لا يخفى عليه اهتمامه الكبير بعلم النفس وبالتعاليم التي تلقاها عن سيغموند فرويد؛ والتي أدت به إلى كتابة مقالات وأعمال رائعة وذات سمة ميَّزَته عن جميع أقرانه، فنقرأ مقالاته التي يتناول فيها حياة المشاهير من الأدباء أمثال أندريه دي بلزاك، وتشارلز ديكنز، وفيودور ديستويفسكي ورومان رولان، بحيادية ودون رتوش، إذ يُميط اللثام عن حقائق مجهولة في حياة هؤلاء الأدباء ذائعي الصيت.

كما أن المتأمل في كتابات زفايغ الأدبية يجد أنه كاتب كلاسيكي من طراز فريد؛ إذ يتبع في كتاباته المبادئ الكلاسيكية للكتابة الأدبية من حبكةٍ وتطور وصراع واحتواء للصراع، بيْد أن هذه النمطية في

التركيب والبناء الدرامي يصاحبها غوص تام في أعماق شخصياته وانفعالاتهم وميولهم بشكل يعكس فلسفة ودراسة متأنية لعلم نفس الشخصيات.

وقد كان لفرويد تأثيرٌ جليّ على أعمال صديقه زفايغ، وكذا أسلوبه الفنّي، كما لا يخفى علينا أن فرويد يعتبر أب التحليل النفسي، وأنه لا يمكن تجاهل نظريات فرويد في الثقافة الحديثة، ولا يمكن التقليل منها، فكل أفكاره وإسهاماته النفسية هي التي ساعدت الجميع على فهم العالم وأنارت بصيرة البشر لفهم الطبيعة البشرية، ويعود لفرويد الفضل في خروج بعض المصطلحات النفسية الهامة مثل الأنا والأنا الأعلى إلى النور ومعرفة البشر بهما، وكان زفايغ من أكثر من تأثروا بفرويد إذ كان يعبر -في غير موضع- عن أن فرويد ساهم في تعميق وتوسيع دائرة المعارف الإنسانية حول العقل البشري، وأن فرويد أكبر من حقق إضافة لعقلية وشخصية زفايغ. وكانت المراسلات بين زفايغ وفرويد وصداقتهما قد بدأتا في عام ١٩٠٨ عندما أرسل زفايغ لفرويد نسخة من مسرحيته "Thersites" واستمرت هذه الصداقة حتى وفاة فرويد.

وألقى زفايغ في جنازة فرويد أحد أفضل خطابات الرثاء والاعتراف في التاريخ الأدبي، وكان موضوعها طريقة عمل العقل البشري، مما جعل السيد أسيمان -خلال حديثه في ندوة تمت في مكتبة ماك نيلي

جاكسون في سوهو- يضع زفايغ على قائمة أفضل الأدباء الذين لديهم القدرة على فهم طبيعة عمل العقل البشري، نظرًا لقدراته النفسية التحليلية الكبيرة، كما أبرز السيد كيتامورا – في الندوة ذاتها- قدرة زفايغ على التعامل الجيد مع المرأة، وفهم طبيعة إحباطاتها وسعادتها.

إننا في هذا الكتاب أمام وجبةٍ فلسفية تحليلية دسمة استطاع زفايغ من خلالها إماطة اللثام عن كل الأفكار التي امتلأت بها كتابات سيغموند فرويد، مما ساهم في إعطاء صورة جلية عن كل ما كان يحاول فرويد التَّأصيل له؛ فبعد أن مهّد بنبذةٍ تاريخية عن حالة علم النّفس في نهاية القرن التّاسع عشر، والوضعية التي هيّأت لإشعاع علمٍ جديد، رسم بورتريهًا نفسيًا معمّقا للشّخصية، ليتطرّق بعدها إلى أهمّ أركان عمل فرويد الثّوري، انطلاقًا من عالم اللاوعي، وتقنية التّحليل النّفسي، مرورًا بعالم تفسير الأحلام إلى عالم الجنس، ليختم سيرته التي يمكن اعتبارها بحثًا أكاديميًا يُبسِّط علم النّفس بدعوة إلى التّأمل والتّسامح وفهم الذّات..

وبهذا يكون زفايغ من أفضل من قدم سيرة أدبية تحليلية وصفية لصديقه سيغموند فرويد.



إلى ألبرت آينشتاين
مع فائق احترامي



«كل اضطرابٍ في الطّبيعة هو تذكيرٌ بوطن أسمى»

نوفاليس

مقدّمة

الصّحة، بالنّسبة للإنسان شيءٌ طبيعي، والمرض، شيء غير طبيعي؛ إذ يتمتّع الجسد بالصحة بطريقة غاية في الطّبيعية، مثلما تتمتّع الرّئة بالهواء، والعين بالنّور، حيث تعيش الصّحة وتنمو في ذات الإنسان في صمت مع الإحساس العام بالحياة في الوقت نفسه. أمّا المرض، فعلى العكس من ذلك، يتسلّل بغتة للجسم مثل "شيء غريب". يندفع فجأة على الرُّوح المرتعبة، ويحرّك بداخلها كمًّا من التّساؤلات.

إذًا، بما أنّ هذا العدوّ المثير للقلق قادمٌ من الخارج، فمن بعث به؟ هل سيبقى، هل سينسحب؟ هل بالإمكان تجنّب خطره، أو التوسّل إليه، أو التّحكم فيه؟

تخلق مخالب المرض الحادّة في قلب الإنسان المشاعرَ الأكثر تناقضًا؛ الخوف، الثقة، الأمل، السخط، التواضع وأخيرًا اليأس، تلك التي تدفع بالمريض للتّساؤل، للتّفكير، للصّلاة، ليرفع بصره المرعوب في الفراغ، ليخلق كيانًا يُمكنه اللجوء إليه في فزعه. فالألم والمعاناة هما من خلقا عند الإنسان الشّعور بالدّين، وفكرة الإله.

أما كون الصّحة هي الحالةُ الطّبيعية للإنسان، فهو شيء لا يُفسّر،

ولا يحتاج لأن يُفَسَّر. لكن يسعى كلّ كائن يُعاني لاكتشاف معنى لمعاناته. هل يصيبنا المرض دون سبب؟ هل يحترق جسدنا بالحمّى دون خطأ اقترفناه، أليس لحديد الألم المنصهر الذي يقلّب أحشاءنا هدف؟ أليس له سبب؟

لم تجرؤ الإنسانية أبدًا أن تسبر أعماق هذه الفكرة المُخيفة عن العبثية التّامة للمُعاناة والألم وتعقّبها إلى النّهاية، وهو الشّيء الذي يكفي ليُدمّر نظام الكون الأخلاقي بأكمله، إذ يبدو لها المرض دائمًا مُرسلاً من قبل شخص ما، ولا بدّ وأنّ لهذا الكيان الذي يبعث به أسبابه ليجعله يدخل في هذا الجسد أو ذاك. لا بدّ وأنّ أحدهم حانقٌ على الذي سيصاب بالمرض، غاضبٌ منه، ويُكِنُّ له كُرها. يريد أحدهم معاقبته من أجل خطأ، بسبب مخالفة، أو بسبب ارتكاب خطيئة مخالِفة للوصايا. ولا يمكن إلّا أن يكون ذاك القادرُ على كلّ شيء، ذاك الذي يقصف الرّعد، والذي يزرع على الأرض البرد والحرّ، الذي يشعل أو يطفئ النّجوم، هو، القادر على كلّ شيء: الرّب. ولهذا، منذ البدء، ارتبط إدراك المرض ارتباطًا وثيقًا لا يُحَلّ بالإدراك الدّيني.

تُرسل الآلهة بالمرض، والآلهة وحدها قادرة على جعله يختفي: تنشأ هذه الفكرة، ثابتةً غير قابلةٍ للتّغيير، عند مطلع فجر كلّ طب. وبينما لا يزال يجهل قدراته الشّخصية، فقيرا، عاجزا، ضعيفا ومنعزلا، لا يجد الإنسان البدائي، وهو ضحيّة لمهماز المرض، شيئا آخر يفعله سوى

رفع روحه نحو الرّب السّاحر، سوى أن يصرخ له معاناته، مُتوسّلاً إيّاه أن يُخلّصه. العلاج الوحيد الذي يعرفه هو الدّعاء، والصّلاة، والتّضحية. لا يمكن الدّفاع عن النّفس ضدّه، القدير على كلّ شيء، الذي لا يُهزم، والمختفي خلف غياهب الظّلمات: لا يسع المرء إلّا أن يذلّ نفسه، أن يتوسّل الصّفح والمغفرة، التّضرع له ليسحب منه الألم الذي ينخر في الجسد. لكن أنّى له أن يصل إلى الذي لا يُرى؟ كيف التّحدّث إلى ذاك الذي يُجهَل مكانه؟ كيف تُقدَّم له الدّلائل والبراهين على النّدم والخضوع والاستعداد للتّضحية؟

يجهل البائس ذلك، كما يجهل كلّ شيء. لا يكشف الرّب ذاته له، ولا ينحني على وُجوده المُتواضع، ولا يُصغي لصلاته، ولا يتنزّل لإعطائه جوابا. حينها، وفي محنته، يتوجّب على الإنسان العاجز المذهول أن يستنجد بإنسان آخر، أكثر حكمة، أكثر تجربة، والذي هو على اطّلاع بالصّيغ التي بإمكانها أن تُجنّب خطر قوى الظّلام وتطردها، وأن ترضي القوى الغاضبة، ليكون وسيطًا بينه وبين الرّب. هذا الوسيط في الثّقافات البدائية هو دائمًا الكاهن.

في بدايات الجنس البشري، لم يكن الكفاح من أجل الصّحة يعني محاربة المرض، بل كان يعني الكفاح من أجل الرّب. في البداية، ما كلّ طبٍّ سوى لاهوت، عبادة، طقوس، سحر، وردّ فعل الإنسان النّفسي أمام الابتلاء الذي أرسله الرّب. وللتّصدي للمعاناة الجسدية، لم

تُستعمَل تقنيةً، بل فعلً ديني. لم يتمّ البحث عن فهم المرض، بل البحث عن الرّب.

لم تكن هنالك محاولة لمعالجة ظواهر الألم، بل سُعِي للتّكفير عنها، وإخراجها عن طريق الصّلاة، وفديتها من الرّب عن طريق النّذر والشّعائر والتّضحيات، لأنّ المرض لا يزول إلّا بالطّريقة نفسها التي حلّ بها: الطّريقة الماورائية. لا وجود إلّا لصحّةٍ واحدة، ومرضٍ واحد، وما لهذا الأخير سوى سبب واحد، وعلاج واحد: الرّب. وبين الرّب والألم، لا وجود إلّا لوسيط واحد: الكاهن، والذي يعتبر في آنٍ حارسَ الرّوح والجسد. لم يُقسّم العالم بعد شطرين: كان الإيمان والعلم لا يزالان مندمجيْن في كيانٍ وحيد متواجد في المعبد المقدّس: لا سبيل للخلاص دون طقوس، دون صلاة أو استحضار، دون تفعيلِ كلّ قوى الرّوح في آنٍ واحد.

ولهذا لا يمارس الكهنة وأسياد الشّياطين، ومترجمو الأحلام، هم العالمون بسير النّجوم الغامض، فنَّ الطّب كعلم تطبيقي، بل وحصريا باعتباره لغزًا دينيًا. هذا الفنّ الذي لا يمكنُ تعلّمه، والذي لا يُلقَّن إلّا للعارفين المكرّسين ليتناقلوه من جيلٍ إلى آخر، ورغم أنّ التّجربة علّمتهم الكثير على الصّعيد الطّبي، إلّا أنّهم لا يقدّمون أبدًا نصائح عملية: يشترطون دائما الشّفاء الإعجازي من المعابد والإيمان والآلهة. لا يُمكن للمريض أن يشفى دون أن يطهّر الجسد والرّوح، يجب على

الحجّاج الذين يقصدون معبد "إبيداوروس"، في رحلة طويلة شاقّة أن يمضوا الأمسية في الصّلوات والاستحمام، وأن يضحّوا كلّ بحيوان، أن يناموا في ساحة المعبد على جلد الكبش الأضحية، وأن يقصّوا الأحلام على كاهن ليفسّرها لهم هذا الأخير: وعندها فقط، يمنحهم، إضافة إلى البركة الدّينية، المساعدة الطّبية. لكنّ الشّرط الأوّل لكل شفاء، التّعهد الضّروري، هو ارتقاء الرّوح الواثق إلى الرّب؛ على الرّاغب في معجزة الصّحة أن يتحضّر لذلك. ارتبطت العقيدة الطّبية في بداياتها ارتباطًا وثيقًا بالعقيدة الدينية؛ عند البدء، شكّل الطّب واللّاهوت كيانًا واحدًا.

سرعان ما تتكسّر وحدة البداية. لكي يستقلّ بذاته، ولكي يتمكّن من الوجود كوسيط عملي بين المرض والمريض، على العلم أن يجرّد الألم من أصله الإلهي، ويستبعد المُمارسات الدّينية باعتبارها غير ضرورية: الصّلاة، والعبادة، والتّضحية. يضع الطّبيب نفسه بجانب الكاهن، ثمّ سرعان ما يقف ضدّه -مأساة أمبادوقليس – وبجلبه المرضَ من العالم الماورائي إلى عالم الظّواهر الطّبيعية، سيسعى للقضاء على اضطراب الطّبيعة هذا من خلال عناصرها الخارجية، أعشابها، ونسغها، ومعادنها. يحصر الكاهن نفسه في العبادة، ولا يهتمّ بالرّعاية الطّبية؛ ويتخلّى الطّبيب عن كلّ تأثير نفسي أو عبادة أو سحر: ويتّبع التّياران الآن مسارَيْن مُتباينَيْن.

ونتيجة لهذا التّمزق الكبير في الوحدة القديمة، تكتسب عناصر الطّب فورًا معنى وجانبًا جديدين تمامًا. أوّلا، تنقسم الظّاهرة النّفسية العامّة المسمّاة "مرض" إلى عدد لا يُحصى من الأمراض المنفردة، المحدّدة والمصنّفة. وبهذه الطريقة، ينفصل وجوده عن كيان الشّخص النّفسي. لم يعد المرض ظاهرة تتهجّم على الإنسان بكامله، بل فقط على بعض أعضائه (يقول فيرشو في مؤتمر روما: "لا توجد أمراض عامّة، فقط أمراضُ أعضاء وأمراضُ خلايا"). تحوّلت مهمّة الطّبيب الأوّلية التي كانت تتمثّل في مكافحة المرض كوحدة شمولية بشكلٍ طبيعي إلى مهنة أسوءَ في الحقيقة: تحديد مكان المرض وسببه، وتصنيفه في فئة من الأمراض المعروفة والمحدّدة بشكل منهجي.

ويمجرّد أن ينتهي الطّبيب من وضع تشخيصه وتحديد المرض، يكون قد أنجز الأهم، ويتابع العلاج من تلقاء نفسه بـ"الدّواء" الموصوف مُسبقًا لهذه "الحالة" بالذّات. الطّب الحديث علمٌ مرتكز على المعرفة، ومنفصل كليًا عن كلّ دين وسحر، يرتكز على يقين مطلق، بدل الاستعانة بالحدس الفردي؛ رغم أنّه لا يزال يحمل الاسم الشّعري "للفنّ الطّبي"، لم تعد في الحقيقة هذه الكلمة تصف سوى حرفة فنيّة. ولم يعد الطّب يشترط على متّبعيه كما من قبل توجّها كهنوتيًا، ولا مواهب استبصارية تمكّنهم من التّواصل مع قوى الطّبيعة الكونية: أصبح النّداءُ الدّاخلي مهنةً، والسّحرُ نظامًا، وأصبح سرّ

الشّفاء معرفةً بالأعضاء وعلمًا طبيا.

لم يعد الشّفاء فعلا نفسيا، أو حدثا إعجازيا، بل فعلا مُعَقْلَنًا ومحسوبًا من طرف الطّبيب؛ وحلّت الممارسة محلّ العفوية، والحِرَفيةُ اليدوية محلّ "اللّوغوس"، الصّيغ الغامضة، والأقوال الكهنوتية الإبداعية. في حين تطلّبت عملية الشّفاء السّحرية القديمة أعلى مُستوى من توتّر الرّوح، تتطلّب طريقة التّشخيص السّريرية الجديدة من الطّبيب العكس تماما، برودة أعصاب كاملة، وتبصّر.

كان على هذا التّوجّه الحتمي لأساليب العلاج نحو الماديّة والاحترافية أن يبلغ في القرن التّاسع عشر درجة عظيمة؛ وبين المعالِج والمعالَج، يتدخّل عنصر ثالث خالٍ من الحياة: الجهاز. أصبحت لنظرة الطّبيب التي كانت تشمل جميع الأعراض في خلاصة إبداعية أهمّيةُ أقل فأقلّ للتّشخيص: أضحى المجهر موجودًا لاكتشاف الجرثومة البكتيرية، ومخطّط القلب لتسجيل حركات ونبض القلب، وجاءت أشعّة رونتغن لتحلّ محلّ الرّؤية الحدسية. سلب المخبر الطّبيبَ بشكل متزايد ما كان لا يزال في مهنته شخصيا في مجال التّشخيص؛ أمّا عن العلاج، فالورشات الكيماوية تمنح له الدّواء المحضّر الجاهز، مُحدَّد الجرعات ومعلّبا، دواءٌ كان المُعالج في العصور الوسطى مُضطرًا لقياسه وحسابه وخلطه بنفسه.

القوّة المطلقة للتّقنية التي غزت الطّب – في وقت متأخّر مقارنة

بالمجالات الأخرى في الحقيقة، لكن انتهى بها الأمر للاستقرار فيه منتصرة – ترسم لعملية الشّفاء لوحةً متباينة، شيئا فشيئا، أصبح المرض الذي كان من قبل يُعتبَر دخولا للما ورائيّ في العالم الفردي تحديدًا عكس ما كان عليه في فجر الإنسانية: مجرّد حالة "طبيعية" "نموذجية"، تطوّرها محدّد مسبقا، ومشكلة يحلّها العقل. إضافة إلى هذه العقلنة الدّاخلية، يبدو التّنظيم الخارجي كمُكمِّل قوي؛ في المشافي -متاجر البؤس البشرية العامّة تلك- تُصنَّف الأمراض في فئات لكلّ مختصّوها، ولم يعد يتعامل فيها الأطّباء سوى مع "الحالات"، لم يعودوا في العادة يفحصون غير العضو المريض، دون حتّى أن يلقوا بنظرة واحدة على مظهر الإنسان الذي يتصارع مع المعاناة. أضف إلى ذلك المنظّمات العملاقة، وعيادات الفحص الخارجية والتّأمينات الاجتماعية التي ما زالت تُساهم في إزالة الطّابع الشّخصي وتبدّده، وهذه العقلنة بشكل متزايد؛ ينتج عن ذلك نوع من التّعميم والتّقييس الذي يخنق أيّ نوع من التّواصل الدّاخلي بين الطّبيب والمريض؛ ورغم كلّ حسن النّية المتواجدة في العالم، يصعب أكثر فأكثر إحياء شرارة تلك القوّة المغناطيسية الغامضة التي تذهب من الرّوح إلى الرّوح بين الطّبيب والمريض.

طبيب الأسرة، الوحيد الذي بقي يرى الإنسان في المريض، والذي لم يكن فقط يعرف حالته الجسدية، بل النّفسية، طبيعته وتغييراته،

وأيضا عائلته وكنتيجة لذلك تاريخه الطّبي، هو الأخير الذي بقي يمثّل شيئا من الازدواجية القديمة للكاهن والمعالج، لكنّه اتّخذ شيئا فشيئا صورةَ الحفرية الأثرية. ونحّاه الوقت جانبا. فهو يعارض بمبدئه زمن التّخصص، والتّنظيم، كما تعارض عربة الحصان زمن السّيارة. وكونه إنسانيا فوق اللزوم، لم يعد قادرًا على التّكيف مع ميكانيكا الطّب المتطوّرة.

لطالما قاومت كتلة النّاس الجاهلة -والحدسية رغم ذلك- التّعميمَ ومحوَ الطّابع الشّخصي، والعقلنة المطلقة للطّب. اليوم كما كان عليه الحال منذ ألف ألف عام، لم يتأثّر الإنسان البدائي بعد بـ "الثّقافة"، ولا يزال يَعتبر، خائفا، المرضَ كشيءٍ ما ورائي، ويعارضه بالمقاومة العقلية التي تتمثّل في الأمل والرّجاء، والصّلاة والنّذر؛ فهو لا يفكّر أوّل الأمر بالتّعفن وبانسداد شرايينه، فقط بالرّب. لا يمكن لأيّ مرجع مدرسي ولا أيّ معلّم أن يقنعه أنّ المرض يُخلَق بصورة "طبيعية"، أي دون أن يكون له أيّ معنى، ودون أن تتدخّل مسألة الإحساس بالذّنب؛ ولهذا فهو يحترس مُسبقا من كلّ ممارسة تعد بالقضاء على المرض ببرود، بطريقة تقنية، وعقلانية.

رفضُ الشّعب للطّبيب خرّيج الجامعات يتوافق مع غريزةٍ جماعية وِراثية تشترط طبيبًا "ينتهج طريقة طبيعية"، في علاقةٍ مع ما هو كوني، يتعامل مع النّباتات والحيوانات، طبيب أصبح مُعالجا لأنّ قَدَرَه

أراد ذلك، وليس نتيجة لامتحانات؛ يبحث الشّعب دائما، بدلا من رجل الحِرفة العارف بالأمراض، عن "الرّجل" الذي يملك القوّة التي تمكّنه من "التّغلب" على المرض. رغم كون عالم الشّياطين والسّحر قد تلاشى منذ مدّة في عصر الضّوء الكهربائي، إلّا أنّ الايمان بصاحب المعجزات، هذا السّاحر، لا يزال حيّا أكثر ممّا يُعترَف به علنا. التّبجيل الرّهيب نفسه الذي نكنّه للعبقرية الإبداعية المستعصية على التّفسير لبيتهوفن، أو بلزاك أو فان جوخ، لا يزال الشّعب يكنّه إلى غاية اليوم لكلّ الذين يظنّ انّه يلتمس عندهم تملّكهم لقوى ما ورائية سامية قادرة على الشّفاء. يطالب دائما، في دور الوسيط، بدل الدّواء الجماد البارد، بالدّفء البشري الحيّ الذي يشعّ من "القوّة". يوقظ كلّ من السّاحر، والعرّاف المستعمل للمغنطة، والرّاعي، ومعالجة القرية بداخله ثقةً أكبر من تلك التي يوقظها الطّبيب المُعيّن من قبل البلدية، والمُستحِق لراتب، لأنّهم لا يمارسون الطّب كعلم، بل كفنّ، وخاصّة، كسحرٍ أسود ممنوع. كلّما توغّل الطّب في التّخصص والعقلنة، كلّما ازداد تقنية، انتفضت غريزة الجماهير ضدّه بعنف أكبر: فالتّيار المُظلم التّحتي الذي يناضل منذ قرون ضد الطّب الأكاديمي لا يزال يعبر في أعماق الشّعب، رغم تعميم التّعليم.

يشعر العلم بهذه المقاومة ويحاربها دون جدوى، رغم أنه نجح من خلال مساعدة الدّولة في الحصول على قانون ضدّ المُعالجين والأطباء

الدّجاجلة: لكن يستحيل محو الحركات ذات الخلفية الدّينية كليًا بالقرارات وحدها. خفية عن القانون، ينشط كما في العصور الوسطى عدد لا يحصى من المُعالجين غير المؤهّلين، أي خارجين عن القانون في نظر الدّولة، والحرب بين العلاجات الطّبيعية، العلاجات الدّينية والعلاج العلمي لا تزال مُستمرّة. ورغم ذلك، لم يخرج أعدى أعداء العلم من الأكواخ أو من مخيّمات الغجر، بل من صفوف العلم ذاته؛ ومثلما لم تتّخذ الثّورة الفرنسية كلّ مرشديها من الشّعب، ومثلما تمّ تقويض هيمنة النّبلاء، في الأساس، من قِبَلِ النّبلاء أنفسهم الذين انحازوا ضدّ طبقة النّبلاء، فقادة الثّورة الكبيرة ضدّ تخصّص الطّب المفرط الأكثرَ تصميمًا كانوا دائمًا أطبّاءً مُستقلّين. أوّل من حارب انتزاع دور الرّوح من عملية الشّفاء، وحارب تفسير المعجزة كان "براكلسوس".

هاجم "الدّكاترة" بوحشية الفلّاحين التي تميّزه، واتّهمهم أنّهم يريدون بعلمهم المكتبي تفكيكَ وإعادة تجميع العالم المجهري كما لو أنّه كان ساعة. حارب الكبرياء، ودوغماتية علم فقدَ كلّ ما يربطه بالسّحر السّامي العالي لـ"الطَّبيعة المُطَبِّعَة" - natura naturans -، علم لا يعترف بالقوى الأوّلية ولا يحترمها، ويتجاهل الانسيابية التي تنبع من الرّوح الفردية ومن الرّوح الكونية على حدّ سواء. ومهما بدت لنا اليوم هذه الصّيغ مشبوهة، فالتّأثير الرّوحي لهذا الرّجل لا ينفكّ

يزداد، إن صحّ القول، تحت جلد الزّمن، ويتجلّى في بداية القرن التّاسع عشر فيما يسمّى بالطّب "الرّومانسي"، والّذي مع ارتباطه بالحركة الشّعرية والفلسفية لتلك الفترة، يطمح إلى وحدة سامية للرّوح مع الجسد.

من خلال إيمانه المطلق بالرّوح الكونية، يؤكّد الطّب الرّومانسي أنّ الطبيعة بحدّ ذاتها هي أحكم المُعالجين، وأنّها لا تحتاج إلى الإنسان إلّا بصفته مُساعدًا على الأكثر. وتماما مثلما يخلق الدّم مضادّات للسّموم دون مساعدة الكيميائي، ينجح الجسد الحيّ الذي يتحوّل ويحافظ على نفسه، غالبًا وحده ودون مساعدة في التّغلب على مرضه. ستكون المهمّة الأساس لأيّ طبّ ألّا يعارض الطّبيعة بعناد، بل فقط أن يعزّز في حالة المرض إرادة الشّفاء المتواجدة باستمرار عند الفرد. غالبًا ما يكون اندفاعٌ أخلاقي، ديني أو فكري أكثر فعاليةً من الكيمياء ومن الأجهزة، الحقيقة أنّ الإنجاز الحقيقي دائما ينبع من الدّاخل، وليس من الخارج أبدًا. الطّبيعة هي "الطّبيب الدّاخلي" الذي يحمله كلّ واحد منّا بداخله منذ ولادته والذي يعرف أكثر بكثير عن الأمراض من الأخصّائي الذي جلّ ما يفعله هو الاعتماد على العوارض الخارجية، يضيف. يعتبر الطّب الرّومانسي، كما نرى، المرض والجسد ومشكل الشّفاء "كوحدة".

ولّدت هذه الفكرة الأساسية لمقاومة الجسد للأمراض سلسلةً

كاملة من الأنظمة خلال القرن التّاسع عشر. وقد بنى "ميسمر" عقيدته حول "إرادة الشّفاء" الموجودة بكيان الانسان، ويبني "العلم المسيحي" عقيدته على قوّة الإيمان المخصبة، التي هي نتاج معرفة بالذّات. ومثلما يستخدم هؤلاء المعالجون قوى الطّبيعة الدّاخلية، يستخدم الآخرون قواها الخارجية: يستخدم المعالجون بالطّب المثلي العناصر البسيطة، ويستخدم كلّ من "كنيب" وأطباء الطّب التّجانسي العناصرَ المنشّطة: الماء والشّمس والضّوء؛ لكنّهم يتخلّون كلّهم بالإجماع عن الأدوية الكيميائية، والأجهزة الطّبية، وبالتّالي عن الإنجازات التي يفتخر بها الطّب الحديث.

يمكن تلخيص التّناقض العام بين كل هذه العلاجات الطّبيعية، هذه العلاجات الإعجازية، هذه "العلاجات بالرّوح" والطّب الرّسمي، في صيغة موجزة. في الطّب العلمي، يُعتَبر المريض "شيئًا"، الطّب مفروضٌ عليه تقريبا بازدراء، دون أن يكون له أيّ دور فعّال إطلاقا، لا رأي له ولا يمكنه اشتراط أيّ شيء، لا شيء يفعله غير اتّباع تعليمات الطّبيب، طَيّعًا دون تفكير وأن يتفادى قدر الإمكان التّدخل في عملية العلاج. في كلمة "العلاج" يكمن المفتاح.

فعلى العكس من ذلك، تشترط "الطّريقة النّفسية" قبل أيّ شيء من المريض أن يكون هو نفسه "فعّالا"، أن يبذل قصارى جهده ضد المرض، بصفته "موضوع" المرض، الحامل والمُنجز المحقّق الأساس

للعلاج. في هذا دعوةٌ للمريض ليرتقي نفسيا، وليجمّع ذاته كوحدةِ إرادةٍ كي يعارض بوحدة كيانه وحدةَ المرض؛ الدّواء الحقيقي والوحيد لكلّ علاج نفسي هو في الغالب مقتصر، عند المعالجين، على قوّة الكلمة. لكنّ الذي يعرف المُعجزات التّي يمكن لـ"اللّوغوس" أن يُحقّقها، والكلمة الخلّاقة، هذه الاهتزازة السّحرية للشّفة في الفراغ التي شيّدت وهدمت عوالم لا تحصى، لن يستغرب حينما يرى في فنّ الشّفاء مثلما هو الحال في باقي المجالات، المعجزات التي يمكن أن تتحقّق بالكلمات وحدها. لن يتفاجأ عندما يرى الصّحةَ تُرمَّم فقط بالعقل، وبالكلمة، بالنّظرة إلى الأجساد المُدمَّرة بالكامل أحيانا.

حالات الشّفاء هذه في حقيقة الأمر ليست لا إعجازية، ولا نادرة: هي فقط تعكس بشكل مبهم قانونا لا يزال لغزا بالنّسبة لنا، والذي ستتعمّق فيه ربّما الأزمنة المستقبلية، قانون العلاقات السّامية بين الجسد والرّوح؛ ما هو جيّد بالفعل بالنّسبة لحقبتنا هذه هو عدم إنكار إمكانية علاجات نفسية بالكامل، والانحناء المُحرَج نوعًا ما أمام الظّواهر التي لا يمكن للعلم وحده تفسيرها.

في رأيي أنّ التّخلي الطّوعي عن الطّب الأكاديمي من قبل بعض الأطباء المستقلين هو أحد أكثر الأحداث إثارة للاهتمام في تاريخ الحضارة. لا شيء في التّاريخ، تاريخ الحقائق كما في تاريخ الفكر،

يعادل في العظمة الدّرامية الموقفَ الأخلاقي لرجلٍ وحيد، ضعيف، منعزل، يتمرّد ضدّ مُنظّمة تهيمن على العالم بأسره. في كلّ مرّة تجرّأ رجل، مسلّح بإيمانه القوي الدّاخلي فقط، على الدّخول في صراع مع قوى العالم المتحالفة ليبدأ معركة تبدو عبثيةً لا معنى لها، ليس له فيها أدنى فرصةٍ للانتصار- سواء تعلّق الأمر بالعبد المهزوم "سبارتاكوس" وهو يصارع جحافل الفرق الرّومانية، أو القوزاقي "بوجاتشيف" البائس، وقد حلم بالسّيطرة على روسيا العظمى، أو "لوثر"، الرّاهب المتسامح الأغسطيني الذي نهض ضدّ العقيدة الكاثوليكية القوية- دائما ما حاول أن يوصل إلى باقي البشر طاقته الدّاخلية، وأن يجذب من العدم قوى يتعذّر قياس شدّتها.

جمع كلّ واحد من المتعصّبين بشدّة لطريقة "الشّفاء بالرّوح" من حوله مئات الآلاف من الأفراد؛ وقد هزّ كلٌّ بإنجازاته وعلاجاته ضميرَ زمانه وزلزله. وكلّ قد خلق في العلم تيّارات عظيمة. شيء رائع: في الوقت الذي حقّق فيه الطّب بفضل تقنية مُتقَنة بشكل سحري مُعجزاتٍ حقيقية، والذي تعلّم فيه أن يلاحظ ويحلّل ويقيس ويصوّر ويؤثّر ويحوّل أصغر الذّرات والجزيئات في المادّة الحيّة، وفي الوقت الذي تحذوا فيه باقي العلوم الطّبيعية الدّقيقة حذوه وتساعده، وقتٌ يبدو فيه كلّ العنصر العضوي أخيرا قد جُرِّد من كلّ غموض، في زمن كهذا، يبرهن سلسلة من الباحثين على ضرورة هذه المعرفة في الكثير

من الحالات. يثبتون وفي العلن، بطريقة لا تقبل الجدل أنّه اليوم، كما في الماضي، بالإمكان الحصول على حالات شفاء فقط بالوسائل النّفسية، وهذا حتّى في الحالات التي فشلت فيها آلية الطّب الأكاديمي المثيرة للإعجاب.

إذا ما نظرنا إليه من الخارج، فنظامهم غير مفهوم، ويكاد يكون سخيفًا في عدم وضوحه، يبدو الطّبيب والمريض، الجالسيْن في هدوء مقابل بعضهما البعض، فقط يتحادثان. لا وجود لأشعّة رونتغن، ولا لأدوات قياس، ولا لتيّار كهربائي، ولا حتى لمقياس حرارة، لا شيء من التّرسانة التّقنية التّي هي مصدر الفخر المُبرَّر لعصرنا: ومع ذلك فإن طريقتهم القديمة غالبًا ما تعمل بشكل أكثر فاعلية من أكثر العلاجات تقدّمًا وحداثة. حقيقة وجود سكك حديدية لم يغيّر فكر الإنسانية. ألا يُجلَب حتّى الآن، وكلّ سنة إلى كهف "لورد" مئات الآلاف من الحجّاج الرّاغبين في الشّفاء هناك فقط بفعل معجزة؟ اختراع التّرددات العالية لم يغيّر هو أيضا موقف الرّوح من الغموض، إذ أنّ هذه التّيارات المختفية في العصا السّحرة لـ"سارق الأرواح"، ألم تجلب من العدم وحول رجل واحد، في مدينة "غالسباخ"، في العام ١٩٣٠، مدينةً بأسرها، بفنادقها ومصحّاتها ومراكز التّرفيه فيها؟ لم تظهر أيّ حقيقة بالوضوح الذي ظهر به نجاح علاجات الإيحاء المتضاعفة، والشّفاء الذي يوصف بالإعجازي، القدر الذي لا يزال

القرن العشرين يتمتّع به من طاقات رائعة، وكم من امكانيات العلاج للكثيرين طيلة سنوات قد أُهمِلت عن قصد من طرف طبّ البكتيريا والخلايا، منكرا بعناد تدخّل اللّاعقلاني، وباستبعاده متعسّفا من حساباته الدّقيقة العلاجَ النّفسي الذّاتي.

بالطبع، لم يغيّر أيٌّ من هذه الأنظمة العلاجية القديم منها والجديد، ولا للحظة واحدة التّنظيمَ الرّائع للطّب الحديث، الذي يستحيل التّفوّق عليه سواء في تنوّعه، ثرائه أو في منهجيّات فحصه، وانتصار بعض الأنظمة والعلاجات لا يثبت في أيّ حال من الأحوال أنّ الطّب العلمي الحديث قد أخطأ؛ فقط تمّ كشف قناع هذه الدّغماتية التي تتعصّب حصريا للمنهجية الأحدث لتصفها بالصّحيحة والمقبولة، وتعتبر بوقاحة كلّ المنهجيات الأخرى خاطئة، مرفوضة وقد تجاوزها الزّمن؛ تلقّى ادّعاء النّفوذ هذا وحده ضربات موجعة.

لم تشارك النّجاحات التي لا يمكن إنكارها الآن للمنهجيات النّفسية التي يتطرّق لها هذا الكتاب بالقليل في إيقاظ التّفكير البنّاء لدى الزّعماء الفكريين في مجال الطّب. وقد تسلّل شكّ طفيف، لكنّه محسوس حتّى بالنّسبة لنا باعتبارنا دخيلين على هذا الميدان، وسط صفوفهم. ونتساءل، كما يتساءل رجل من قامة "ساوربروخ" فيما إذا لم يدفع التّصور البكتيريولوجي والمصلي البحث للأمراض بالطب إلى طريق مسدود؛ لو أنّ التّخصص من جهة، وهيمنة التّعميم على

التّشخيص الفردي من جهة أخرى لم يبدأ شيئا فشيئا في تحويل فن الطّب الذي يهدف لخدمة الإنسان إلى علم غريب عن الإنسانية، علمٌ لا هدف له غير ذاته؟ أو لنقتبس عبارة ممتازة: "ألم يصبح الدّكتور طبيبا جدّا؟"

ما نسمّيه اليوم أزمة "صحوة ضمير الطّب"، لا علاقة لها بحيّز ضيّق لحرفة معيّنة؛ بل تساهم في الظّاهرة العامّة للشّك الأوروبي، للنّسبية الكونية، التي-بعد عشرات السّنوات من التّأكيدات المُطلقة في جميع مجالات العلوم – أخيرًا ها هي ذي تُعلّم الأخصّائيين النّظرَ وراءهم ليتساءلوا. بدأ بعض الانفتاح الذي هو في العادة وللأسف غريب عن الأكاديميين في الظّهور: وهكذا، يستشهد كتاب "آشنر" المُمتاز حول "أزمة الطّب" بمجموعة كبيرة من الأمثلة المُدهشة، والتي تعرّفنا كيف أنّ علاجاتٍ سُخِر منها وأُدينت فقط في ماضٍ قريب على كونها من القرون الوسطى (على سبيل المثال الكيّ والحجامة)، قد أصبحت اليوم الأجدد والأحدث.

الطّب، الذي أصبح أخيرًا فُضوليًا بخصوص حقيقةِ قوانينها، أصبح يفحص بعدلٍ أكبر ظواهر "الشّفاء بالرّوح"، والتي كان يصفها الأساتذة المتخرّجون من الجامعات في القرن التاسع عشر باحتقارٍ على أنّها خدعة، وتزوير ودجل، تُبذَل جهود جادّة لتكييف الأساليب النّفسية شيئًا فشيئًا مع الأساليب السّريرية الدّقيقة، والتّوفيق بينهما.

نحسّ بحنين لا يترك مجالا للشّك عند الأطبّاء الأكثر إنسانية والأكثر ذكاءً للشّمولية القديمة، ورغبة للانتقال من علم أمراض موضعيّ بحت إلى علاج عامّ شامل، ليست حاجة لمعرفة الأمراض التي تُصيب الفرد فحسب، وإنّما لمعرفة الفرد نفسه.

بعد تفكيك جسم الإنسان ودراسة خلاياه وجزيئاته، يوجّه رجل العلم أخيرًا فضوله نحو "شمولية" الفرد المعتبر كذلك، ويبحث وراء الأسباب الموضعية لمرضه عن أسبابٍ أخرى أسمى. تسعى علوم جديدة – نظرية النّمط، علم الفراسة، نظرية الوراثة، التّحليل النّفسي، وعلم النّفس الفردي – لإبراز ما هو شخصي، ومتفرّد وخاصّ بكل شخص؛ ونتائج علم النّفس غير الأكاديمي، ظواهر الإيحاء والايحاء الذّاتي، اكتشافات فرويد، وآدلر، تجلب اهتمام كلّ طبيب جاد أكثر فأكثر.

بدأ كلٌّ من تيّارَيْ الطّب العُضوي والنّفسي، المنفصلَيْن منذ قرون، في التّقارب، إذ أنّ كلّ تطوّر –على شاكلة دوّامة جوته! – عند بلوغه درجة معيّنة، سيعود حتميا إلى نقطة مُنطلَقه. تعود كلّ حركيّة في الأخير إلى القانون الذي تخضع له حركتها، ما هو مُجزّأ يسعى للرّجوع إلى حالة الوحدة، كما يسقط المنطقيُّ من جديد في اللّاعقلانية؛ بعد قرون من علم جدّي دقيق منحازٍ درس بعمق شكلَ ومادّة جسم الانسان، نعود مجدّدا إلى "الرّوح التي تبني الجسد".

لا يهدف هذا الكتاب بأيّ صفة من الصّفات أن يكون تاريخا

منهجيا لكلّ أساليب العلاج النّفسي. كلّ ما أستطيع فعله هو تقديم شكلٍ للأفكار. مثل جوهر الموجة التي ترغب في تجاوز ذاتها، على قوّة التّطوير في كلّ فكرة أن تبحث عن أسمى وأكبر أشكالها، فالعامل الحاسم في قيمةِ فكرةٍ ما ليس أبدًا مدى إنجازها، بل فحواها؛ ليست ما هي عليه، بل ما تفعله".

جملة رائعة لبول فاليري" فقط من خلال المتطرِّف، تكون للعالم قيمته، وفقط من خلال المتوسّط، يدوم"

سالسبورغ ١٩٣٠

لو أنّ لعبة الرّغبات السّرية تتوارى تحت النّور الخافت للعواطف العامّة، فهي تصبح، في حالة الشّغف العنيف، أكثر لمعانا، بروزا وروعة؛ والعارف الحقيقي بالرّوح البشرية يدرك كم يمكننا، في المجمل، الاعتماد على آلية الإرادة الحرّة، وفي أيّ حدود يُسمح لنا الاستنتاج بالمقارنة، سينقل الكثير من التّجارب في هذا الفضاء إلى مجاله ويعيد ابتكارها من أجل الحياة الأخلاقية... كم سيكون مثيرا للدّهشة لو نهض، في هذا المجال مثل باقي مجالات الطّبيعة، شخصٌ مثل لينيوس ليشرع في التّصنيف وفقًا للغرائز والميولات....

شيلر

«ما كَمُّ الحقيقة التي بإمكان العقل أن يتحمّلها، وما كمّ الحقيقة التي يجرؤ عليها العقل؟ بالنّسبة لي، أصبح هذا أكثر فأكثر، مقياسَ القيم الحقيقي. الخطأُ (الّذي يتمثّل في الإيمان بالمثالية) ليسَ العمى، بل الخطأُ هو الجبن... كلّ إنجاز، كلّ خطوة في المعرفة نحو الأمام هي نتاجُ الشّجاعة، والصّرامة مع النّفس، والصّفاء مع الذّات»

نيتشه

الوَضْعُ في مَطْلَعِ القَرْن

أدقُّ قياسٍ لأيّ قوّةٍ كانت هو مدى المُقاومة التي بإمكانها التّغلّب عليها. وهكذا، لا يُمكن فهم العمل الثّوري بادئًا ببدء، وبعده العملَ البَنَّاءَ الذي قام به "سيغموند فرويد" على حقيقته إلّا بعد التّعرّف على ما كان عليه فِكْرُ ما قبل الحرب، والفكرةُ السّائدة آنذاك عن عالم غرائز البشر. عُمِّمَت اليومُ أفكارُ فرويد – والتي كانت لا تزال تُعتبر قبل عشرين عامًا تجديفًا وهرطقة- ببساطة، وعلى نطاقٍ واسع في دم الحقبة وفي لغتها؛ وتبدوا الصّيغُ التي ابتكرها غايةً في الطّبيعية لدرجة أنّ رفضَها يتطلّب جُهدًا أكبرَ من اعتمادها. وعلى وجه التّحديد ذلك لأنّه ليس بإمكانِ قرننا العشرين هذا أن يتصوّر لماذا كافح القرن التّاسع عشر بمرارة ضدّ الاكتشاف، المُنتظر مُنذ وقت طويل، للقوى الغرائزية للرّوح، فمن الضّروري إذن إعادةُ طرح الموقفِ النّفسي لأجيالِ تلك الحقبة، وإخراج مومياءِ الأخلاقياتِ السّخيفة لفترة ما قبل الحرب من نعشها من جديد.

ازدراءُ تلك الأخلاق – الّتي عانى منها شبابُنا لدرجةٍ لا يسَعُنا فيها إلّا أن نمقُتَها بهذه الضّراوة- لا يَعنِي بالضّرورة ازدراءَ فكرةِ

الأخلاق وضرورتها. يجد كلّ مُجتمع بشري مرتبط بالرّوح الدّينية أو القومية، نفسَه مُجبرا، وذلك بهدف الحفاظ على ذاته، على كبحِ الميول العدوانية، الجنسية، والفوضوية للفرد، ووضعِها خلف حواجز تُسمّى الأخلاق والقانون. وغنيٌّ عن البيان أنّ كلّ مجتمعٍ من هذه المجتمعات يخلق لنفسه نوعا معيّنا من المعايير والأعراف: منذ القطيع البدائي وإلى غاية قرنِ اكتشاف الكهرباء، سعى كلّ مجتمع وبوسائل مختلفة لقمع الغرائز البدائية. مارست الحضارات القاسية عُنفًا قاسيًا: أراد الأسبرطيون، واليهود، والكالفينيون، والتّطهيريون حرقَ الغريزة الجنسية التي هي مصدر ذعر البشرية بالحديد الأحمر.

لكن، ومهما بلغت شراسة تعليماتها ومحظوراتها، كانت هذه الحقب الشّديدة القسوة تخدم رغم كلّ شيء منطقَ فكرةٍ. وكلّ فكرةٍ، كلّ عقيدة، تُقدِّسُ إلى حدٍّ ما العُنفَ المُستخدَم في سبيلها. لو بلغَ الأسبرطيون بالانضباط درجة اللّاإنسانية، فذلك لأنّ هدفهم وراء ذلك كان تنقيةَ العرق، وخلقَ جيلٍ ذكوري، مُهيّأ، قادر على الحرب: من وجهة نظر المجتمع المثالية، كان تحريرُ الشّهوانية يُعدُّ في نظر الدّولة تعدّياً على سُلطتها. من جهتها، تُحارب المسيحية الميول الجسدية من أجلِ خلاص الرّوح، وإضفاء الرّوحانية على الطّبيعة التي تكون مُضلّلة في شتّى الأحوال. تحديدا لأنّ الكنيسة - التي تُعدّ أكثر علماء النّفس حكمةً- تَعرِفُ شغفَ الإنسان الذي يظلُّ آدَميًا للأبد للجَسد،

فهي تفرضُ عليه بعُنفٍ شغفَ الرّوح بدلا عنه كمثالٍ أعلى؛ وتكسر عنادَهُ المتعجرف في السّجون وفوق المحارق، لتُعيد الرّوح إلى موطنها الأسمى – هو منطقٌ قاسٍ، لكنّه يظلّ منطقًا رغم كلّ شيء. هنا كما هو الحال في أماكن أُخرى، لِتطبيقِ القانونِ الأخلاقي أساسٌ راسخٌ بقوّة هو مفهومها عن العالم. وتظهر الأخلاق على أنّها الشّكل الماديٌّ لفكرةٍ ميتافيزيقية.

لكن باسم ماذا، ولخدمة أيّ فكرة، لا يزال القرن التّاسع عشر -والذي ليست تقواه ومنذ وقتٍ طويل سوى مظاهرًا- يشترط أخلاقًا مُقنّنة على الاطلاق؟ هو الماديٌّ بطريقة فظّة، المنغمس في الشّهوات وربح المال، دون أثرٍ يُذكر للتّقوى العظيمة المُغلقة للحقب الدّينية القديمة، هو المدافعُ عن الدّيمقراطية وحقوق الانسان، لا يمكنه بجديّة حَظر مواطنيه من حقّ التّمتع بحريّة. ذاك الذي يرفع راية التّسامح على صرحِ الحضارة، لم يعد يتمتّع بحقّ السّيد الذي يسمح له بالتّدخل في مفهوم الأخلاق الفردي.

في الواقع، لم تعد حتّى الدّولة الحديثة تسعى، كما كانت الكنيسة تفعل سابقا، لفرض أخلاقٍ داخلية على رعاياها؛ وحده قانون المجتمع يشترط الحفاظ على إجماعٍ وعُرفٍ خارجي. لذلك، لم يعد يُطلب من الفرد أخلاقا حقيقية، أن يكون أخلاقيًا، بل أن يبدو كذلك، وأن يتصرّف كلّ فرد أمام الآخر "كما لو" أنّه كان كذلك. أمّا عن معرفة

ما إذا كان يتصرّف بطريقة أخلاقية فعليا، فالدّولة لا تكترث: فالأمر لا يخصّ إلا الفرد وحده، والذي هو فقط مُطالبٌ بألّا يُقبض عليه بالجرم المشهود مخالفًا التّصرف اللائق المُتعارف عليه. يمكن للكثير من الأشياء أن تحدث، فقط لا يجب التّحدّث عنها!

ولكي يكون المرء صارم الدّقة، يمكنه القول أنّ أخلاق القرن التّاسع عشر لا تتطرّق حتّى للمشكل الحقيقي. فهي تتفاداه وتتهرّب منه، ويقتصر كلّ نشاطها على تجاوزه. على مدى ثلاثة أو أربعة أجيال، تعاملت الحضارة أو بالأحرى نحّت جانبا كلّ المشاكل الجنسية والأخلاقية عن طريق هذا اللّامنطق السّخيف وحده، والذي مفاده أنّ كلّ ما هو خفيّ يَكُفُّ عن الوجود. ويعبّر عن هذه الوضعية الحادّة بهذه النّكتة القائلة أنّ مَنْ حَكَمَ أخلاقيّات القرن لم يكن "كانت" (الفيلسوف)، بل "cant" (لا أستطيع بالإنجليزية).

ولكن كيف أمكن لعصرٍ عقلاني ومستبصرٍ مثل هذا أن يُضلّل نفسه إلى هذا الحدّ ويضيع في هذا النّوع من علم النّفس الخاطئ الذي لا يُمكن الدّفاع عنه؟ كيف استطاع قرن الاكتشافات العظمى، والكمال التّقني، أن يحطّ من مستوى أخلاقه حتّى يصبح عرضًا سحريا مفضوح الأسرار؟ الإجابة بسيطة: ذلك تحديدًا بسبب هذا الفخر بالعقل. بسبب افتتانٍ متفائلٍ بثقافته، وغرور حضارته. أغرق التّقدم غير المسبوق للعلم القرنَ التّاسع عشر في نوعٍ من النّشوة. وبدا

كلّ شيء خاضعا بخنوع لإمبراطورية الفكر.

سُجّلت كلّ يوم، كل ساعة تقريبا، انتصارات جديدة للعلوم الإنسانية؛ تمّ ترويض العناصر المُقاوِمة للزّمان والمكان أكثر فأكثر، وكشفت القمم والأعماق عن أسرارها لفضول النّظرة البشرية المنهجي؛ في كلّ مكان، تركت الفوضى مكانها للتّنظيم، والتّشوش الكامل لإرادة الذّكاء التّخميني. ألم يكن العقل إذن قادرًا على السّيطرة على الغرائز الفوضوية السّارية في دم الفرد، وأن يهذّب ويهدّئ حشد المشاعر الجامحة غير المُطيعة؟

أُنجِزت هذه المهمّة الأساسية تحت هذا المنظور منذ زمنٍ طويل، على حسب ما يقال، وما يلتهبُ من حينٍ لآخر في دم الإنسان المعاصر "المثقّف"، ما هو إلّا البريق الشّاحب الأخير لعاصفةٍ وَلّت وانتهت، آخر تشنُّجاتِ الحيوانيةِ القديمةِ التي تحتضر. لم يتبقّ سوى الصّبر لبضع سنوات أخرى، بضعة عقود، وسيتطهّر النّوع البشري الذي حقّق ارتقاءً رائعا من بدائية أكل لحوم البشر إلى غاية الوصول إلى الإنسانية وإلى الحسّ الاجتماعي، ويتشرّب بقايا هذا الخبث الغامض في لهيب الأخلاقيّة: لذلك، لا داعي حتّى لذكر وجوده. فقط لا تلفتوا انتباه البشر إلى الأشياء الجنسية، وسينتهي الأمر بهم بنسيانها. لا تُثيروا هذا الوحش الغائر في القدم إلى ما قبل الطّوفان، المسجون وراء قضبان الأخلاق الحديدية، بالخطابات، لا تُغذّوه بالأسئلة،

وسيُرَوّض. المرور السّريع، مع اجتناب النّظر لكلّ ما هو مُحرج، والتّظاهر الدّائم بعدم رؤية الأشياء؛ هذا باختصار هو قانونُ القرن التّاسع عشر الأخلاقي بأكمله.

تُسلّح الدّولة كل القِوى التّابعة لها في هذه الحملة المُركّزة ضدّ الصّراحة. تتلقّى جميعها، العلم، الفن، العائلة، الكنيسة، المدرسة، الجامعة التّعليمات الحربية نفسها: تفادي جميع المواجهات، الشّروحات، التّفسيرات، عدم مُهاجمة الخصم، بل تجنّبه من خلال سلوكِ مُنعطفٍ طويل، عدم الخوض في مناقشات جادّة أبدًا، عدم المقاومة بالاستعانة بالحُجج، بل باللّجوء إلى الصّمت وحده؛ المقاطعة الدّائمة والتّجاهل.

تركت كلّ هذه القوى الفكرية الخادمة للثّقافة، بنفاقٍ كبير، وعن طيب خاطر، مطيعةً لهذه الخطّة بطريقة مثيرة لإعجاب، المشكلَ جانبا. لمدّة قرن كامل، في جميع أنحاء أوروبا، وُضعت مسألة الجنس في الحجر. لم يتم إنكارها، ولا تأكيدها، ولا طرحها، ولا إيجاد الحلول لها، لكن تمّ الدّفع بها بلطف خلف ستار. ووقف جيشٌ هائل مُتنكّر في هيئة المدرّسين، المعلّمين، القساوسة، والمراقبين، ليسرق من الشّباب عفويته ومُتعته الحسيّة.

لا يجب أن يلمس جسد أولئك المراهقين ولا نسمة هواء منعش، ولا كلمة صادقة واحدة، ولا حتّى استثارة أرواحهم العفيفة. بينما العرفُ

في السّابق، في كلّ مكان، عند كلّ الشّعوب السّوية، في جميع الحقب العادية، هو أن يدخل المراهق الذي بلغ السنّ التي تؤهّله للزّواج في سنّ الرّجولة فيما يُشبه الاحتفال؛ بينما في الثّقافات اليونانية، الرّومانية، اليهودية أو حتّى في الأماكن التي لا ثقافة بها، يُستقبَل الصّبي صاحب الثّالثة عشرة أو الرّابعة عشرة بصراحة في مجتمعِ "العارفين"، رجلا بين الرّجال، محاربًا بين المحاربين، تبعدُه في القرن التّاسع عشر تربيةً ملعونة وبطرق اصطناعية ومُعادية للطّبيعة، عن كلّ انفتاح. لا أحد يتكلّم أمامه بحرية، وبذلك، فلا أحد يُحرّره. ما يعلمه، لم يستطع معرفته إلا من عند الفتيات، أو من همسات من هم أكبر سنّا منه من رفاقه. وبما أنّ لا أحد يجرؤ على التّكلم سوى بصوت خافت عن علمِ الأشياء هذا، والتي هي أكثر الأشياءِ الطّبيعيّة طَبيعيّةً، ينشأ كلّ مراهقٍ وهو يخدم بدوره بطريقةٍ لا واعية، نفاقَ الحضارة هذا بصفته أداةً له.

تكمن عواقب هذا القرن المليء بالضّبط والنّفاق العنيد في إذلالٍ غير مسبوق لعلم النّفس داخل ثقافةٍ رفيعة المستوى فكريا. إذْ كيفَ كان ممكنا لعلم الرّوح العميق أن يتطوّر دون انفتاحٍ وصدق، كيف كان ممكنا للوضوح أن ينتشر، عندما ظلّ أولئك الذين كانت مُهمّتهم نشر العلم، من المعلّمين والقساوسة والفنّانين والعلماء هم أنفسهم جَهَلَةً أو منافقين؟ دائما ما يُولِّدُ الجهلُ القسوة. إذن، فقد تسبّب جيلٌ من

المربّين القُساة، لأنّهم يفتقرون للعلم، بضررٍ في أرواح الشّباب يستحيل إصلاحه، من خلال مُطالبتهم الدّائمة لهم بـ "ضبط أنفسهم" وأن يكونوا "أخلاقيّين".

يبحثُ المراهقون، غير مُكتملي النّشأة، تحت ضغط البلوغ، دون معرفة بالمرأة، عنِ المنفذ الوحيد المُمكن لجسدهم، ولا يملكون لإرشادهم غير التّوصيات الحكيمة لهؤلاء المرشدين "المُستنيرين"، الذين، بإخبارهم أنّهم ينغمسون في "رذيلة رهيبة" تُدمّر الصّحة، يجرحون أرواحهم بعمق، ويلقّنونهم قهرًا إحساسًا بالنُّقص، ووعيا روحيا بالخطيئة. يتلّقى الطّلاب في الجامعة (وقد رأيت ذلك شخصيا) من هذا النّوع من الأساتذة الذين كنّا نحبّ أن نطلق عليهم تسمية "التّربويين البارزين" ملحوظاتٍ يتعلّمون من خلالها أنّ كلّ مرض جنسي، دون استثناء، "لا شفاء منه". تلك هي الشّرائع التي يقصف بها دُوَارُ تلك الحقبةِ الأخلاقي عقولَ الشّباب دون تردّد.

وداست الأخلاق التّربوية هي ترتدي هذه الأحذية المزوّدة بالمسامير على عالم المراهقين. ولذلك، فلا داعي إطلاقا للتّعجّب من أن تنطلق رصاصة مُسدّس في أيّ لحظة بسبب هذه التّربية المنهجية للخوف التي تخضع لها هذه الأرواح المتردّدة التي لم تنضج بعد، ولا داعي للتّعجب هنا أيضا لو أخلّ هذا الاحتواء العنيف بالتّوازن الدّاخلي لعدد لا يحصى من الأطفال، ولو تمّ إنتاج أعدادٍ معتبرة من هؤلاء الأفراد

الذين يعانون من الوهن العصبي، ويحملون طيلة حياتهم عبء مخاوف فترة مراهقتهم وكبتهم. يهيم الآلاف من هؤلاء الأشخاص، محرومين من النّصيحة، وقد شوّهتهم أخلاقٌ مُنافقة، من طبيب لآخر.

لكن بما أنّ أطبّاء ذلك الوقت لم يتمكّنوا من إيجاد جذور العلّة، أي الجنس، وبما أنّ علم النّفس المُنحاز أخلاقيا في تلك الحقبة ما قبل الفرويدية، لم يكن يجرؤ على التّقدم في ميادين سرّية -لأنَّ عليها أن تظلّ سريّة-، وجد مختصّو طبّ الأعصاب أنفسهم في حيرة من أمرهم عند مواجهة تلك الحالات. يبعثون، وهم يجهلون تماما كيفية التّصرف، بكلّ مرضى الرّوح، والذين لم ينضجوا بعد كفاية ليُزَجّ بهم خلف أسوار المشافي والعيادات العقلية، إلى مُؤسّسات العلاج المائي. يُقدّم لهم البروميد، وتُساء معاملتهم بالصّعقات الكهربائية، لكن لا أحد يجرؤ على التّطرق للأسباب الحقيقية لمرضهم.

وغير الطّبيعيين هم ضحايا للغباء البشري بطريقة أبشع. بما أنّ العلم حكم عليهم ككائنات أدْنى أخلاقيّا، والقانون كمجرمين، يهيم هؤلاء البؤساء، محمَّلين بوراثة رهيبة طوال حياتهم، فالسّجن من أمامهم، والابتزاز من وراءهم، النّير الخفيّ لسرّهم القاتل. لا يُمكنهم طلب المساعدة أو المشورة من أيٍّ كان. إذ أنّه، وفي الحقبة الما قبل الفرويدية، إذا قصد مثليّ طبيبا، قطّب هذا السّيد حاجبيه لأنّ أحدهم تجرّأ على القدوم لإزعاجه بتلك "القذارة".

لا يتمّ الاهتمام بهذه الأشياء الخصوصية في مكتب طبيب! لكن، أين يتم الاهتمام بها إذن؟ ولمن يجب أن يتوجّه الرّجل المضطرب أو الضّائع في حياته العاطفية، أيّ باب سيفتح لنجدة وتخليص أولئك الملايين من الأشخاص؟

تتنصّل الجامعات، ويتشبّث القُضاة بالقوانين، بينما يفضّل الفلاسفة (باستثناء شوبنهاور الشّجاع) ألّا يُلاحظوا في فضائهم انحرافات إيروس هذه، والتي كانت مفهومة جدّا للثّقافات السّابقة؛ عن مبدأ، يُغمض المجتمع عيونه، ويُصرّح أنّه من غير الممكن مُناقشة هذه الأشياء المؤلمة. ولهذا، خيّم صمتٌ في الجرائد، وفي الأوساط العلمية، وبما أنّ الشّرطة على علم، ففي الأمر كفاية. أَنْ يهذيَ في الزّنزانات المُبطّنة المكسوّة مئات الآلاف من سُجناء هذا السّر، هذا، القرن الأخلاقي الأسمى والمتسامح يعرفه ولا يكترث؛ المهمّ هو عدم خروج أيّ صوت إلى الخارج، وأنّ تبقى الهالة التي صنعتها الحضارة، هذا العالم الأكثر أخلاقيّة على الاطلاق، محفوظةً في نظر الجمهور. لأنّ هذه الحقبة تضع المظهرَ الأخلاقي فوق الإنسان!

طيلة قرن كامل، قرن طويل بشكل رهيب، هيمنت مُؤامرة الصّمت "الأخلاقي" الجبانة هذه على أوروبا. وفجأة، كسر صوتٌ ذلك الصّمت.

ذات يوم، ودون أدنى نيّة ثورية، ينهض طبيب شاب، في دائرة

زملائه، وقد اتّخذ الهستيريا كنقطة انطلاق لأبحاثه، ليتكلّم عن اضطرابات، عن كبت الغرائز واحتقانها، وعن إمكانية تحريرها. لا يستخدم إيماءات كبيرة مثيرة للشّفقة، ولا يصرّح بنبرة حماسيّة أنّ الوقت قد حان لوضع المفاهيم الأخلاقية على أساسٍ جديد، وأنّ الوقت قد حان لمناقشة المسألة الجنسية بحرية. لا، لا يلعب هذا الطّبيب الشّاب شديد الواقعية دور الدّعاة في الوسط الأكاديمي. هو يُلقي حصريًا درسا تشخيصيًا حول الذّهان، وأسبابه. وبالتّحديد، الهدوء والطّبيعيّة الذين أثبت بهما أنّ عددًا كبيرا من أمراض العُصاب، وتقريبا جميع الاضطرابات العصابية، تنشأُ من قمع الرّغبة الجنسية، هما ما أثار الرُّعب الجليدي عند زملائه. ليس لأنّهم يعتبرون هذا السّبب خاطئا-بالعكس، معظمهم خمّن أو جرّب تلك الأشياء، فهم مدركون جيّدا على الصّعيد الشّخصي للدّور الذي يلعبه الجنس في توازن الشّخص؛ لكن، باعتبارهم ممثّلي حقبتهم، وباعتبارهم خدم الأخلاق السّائدة الحالية، أحسّوا بالإهانة من هذا التّأكيد لشيءٍ واضح وضوح الشّمس، كما لو أنّ إشارة البروفيسور الشّاب له وحدها تُعادل في ذاتها حركةً غير لائقة. ينظرون إلى بعضهم البعض محرجين. هل يجهل هذا المُحاضر الشّاب العرف الضّمني الذي يمنع الخوض في هذه المواضيع الشّائكة وطرحها، خاصّة في محاضرة علنية لـ "جمعية الأطباء" الفائقة الاحترام؟

على الوافد الجديد أن يكون على علم بهذا العرف، وأن يحترمه: على الفصل الجنسي، يتفاهم الزّملاء بغمزةِ عين، تُلقى نكتة صغيرة أثناء لعبة الورق الحميمة، لكن لا تُقدّم هذه الأطروحات في عزّ القرن التّاسع عشر، قرن بهذا القدر من الثّقافة، في اجتماعٍ أكاديمي. بالفعل، هذا الظّهور العلني الأول لفرويد – وقد حدث هذا المشهدُ بالفعل – هو بالنّسبة لزملائه في الكلية بمثابة طلقة مُسدّسٍ في كنيسة. وأخبره أحسنهم نيّةً من بين زملائه أنّه من الحكمة، ولمصلحته الخاصّة، ولمسيرته الأكاديمية، أن يتخلّى مستقبلا عن أبحاثٍ تُعنى بمواضيع محرجة لهذه الدّرجة، والتي لا تؤدّي إلى أيّ اتّجاه، أو على الأقل، أيّ مواضيعٍ لا يُمكن مناقشتها في العلن.

لكنّ فرويد لا يهتمّ باللّياقة المُسايِرة بل بالصّدق. وقد وجد أثرًا، وها هو ذا يقتفيه. وبالضّبط، تؤكّد له ردّة فعل مُستمعيه أنّه، ودون أن يسعى لذلك، قد وضع اصبعه على مكان المرض، وأنّه من اللّمسة الأولى قد أصاب عصب المسألة. يصمد. ولا يتركهم يخيفونه لا بالتّحذيرات الصّادرة عن طيبة قلب، من بعض ممّن هم أكبر منه مكانة وسنّا، ولا برثاء وتباكي أخلاقيّةٍ أُهينَتْ، والتي لم تتعوّد على أن تُعنّف بهذه الشّدة. ومع هذه الجرأة العنيدة، هذه الشّجاعة الرّجولية وهذا القدر الكبير من الحدس والتي تشكّل مُجتمعة عبقريته، لا يتوانى عن الضّغط أكثر فأكثر على المنطقة الحسّاسة، حتّى يفقأ

خراج هذا الصّمت أخيرًا، ويُنظّف الجرح لتبدأ عملية الشّفاء. مع أوّل ضربة مسبار في المجهول، لم يكن هذا الطّبيب المنعزل يعرف بعد كلّ الذي سيكتشفه في الظّلام. لكنّه يخمّن الهاوية السّحيقة، ولا تتوانى الأعماق عن جذب العقلِ المُبدع كالمغناطيس.

حقيقة أنّ لقاء فرويد الأوّل مع جيله تحوّل إلى تصادم، رغم قلّة أهميّة موضوع هذا اللقاء في حدّ ذاته، هي رمز، وليست صُدفة. لا يقتصر الأمر على الحِكمة المصدومة، والكرامة الأخلاقية السّائدة اللتان تشعران بالإهانة من نظريةٍ معزولة: طبعا لا، فقد اشتمّت هنا الأخلاقُ منتهية الصّلاحية التي تعوّدت أن تصمت على الأشياء، ببصيرة قلقة، مُعارضةً حقيقيّة. إنّها ليست الطّريقة التي يعالج بها فرويد هذا المجال، بل حقيقة أنّه يلمسه، أنّه يجرؤ على لمسه، هو ما يعادل استفزازًا، ودعوةً إلى مُبارزةٍ على أحد الخصمين أن يموت فيها. منذ اللّحظة الأولى، لا يتعلق الأمر بالتّحسين، بل بتغيير جذري. ولا يتعلّق الأمر بالمذاهب، بل بالمبادئ. ولا يتعلّق الأمر بالتّفاصيل، بل بالكُلّ. في مُواجهة أمامية مباشرة، ينتصب شكلان من التّيارات الفكرية، طريقتان متناقضتان بشدة إلى درجة ألّا مجال بينهما للاتفاق، ولا يمكن لاتّفاق أبدًا أن يكون.

علم النّفس ما قبل الفرويدي المُنغلق في أيديولوجية هيمنة الدماغ على الطّبع، يشترط على الفرد، على الإنسان المثقّف والمُتحضّر أن

يكبح غرائزه بالعقل. يجيب فرويد بوضوح وبعنف: الغرائز لا تترك نفسها تُكبح، ومن غير المجدي افتراض أنّه عندما تُكبح، فهي تُطرَد وتختفي إلى الأبد. أقصى ما يمكن فعله هو أن تُكبح غرائز الوعي في اللّاوعي. لكن حينها، وقد عُرّضت لهذا الانحراف الخطير، تتراكم في أعماق الرّوح وتُولِّد بتخمّرها المستمر القلقَ العصبي، الاضطرابات، والمرض. دون أوهام، دون تساهل، دون إيمانٍ بالتّقدم، يُؤكّد فرويد قطعيا بطريقة راديكالية أنّ هذه القوى الغريزية لليبيدو، المنبوذة من طرف الأخلاق، تُكوّن جزءًا غير قابل للتّدمير من كيانِ الإنسان الذي يولد من جديد مع كلّ جنين؛ وأنّه يستحيل إبعادُ هذا العُنصر تمامًا، لكن أنّه وفي بعض الحالات يمكن النّجاح في جعل نشاطه غير ضارّ من خلال تحويله إلى فضاء الوعي.

لذلك، فإنّ الوعي، أو المرور إلى حالة الوعي، والذي تعتبره الأخلاقيّة الاجتماعية القديمة خطرًا كبيرًا، يعتبره فرويد علاجا؛ ويُثبت خطرَ الكبت الذي كانت تعتبره مُفيدًا. ما أرادت المنهجية القديمة تركه مختفيا عن الأنظار، يريد هو أن يعرضه في وضح النّهار. يريد أن يُعَرِّفَ بدل أن يتجاهل، أن يباشر بدل أن يجتنب، أن يتعمّق بدل أن يُشيح بنظره بعيدًا. أن يُعريّ بدل أن يحجب.

فقط من يعرف الغرائز بإمكانه أن يضبطها، وفقط يستطيع أن يُروّض الشّياطين ذاك الذي يجرّها من الأعماق وينظر إليها مباشرةً-

العينُ في العين. لا علاقة للطّب بالأخلاق والحشمة، ولا بالجمالية أو علم فقه اللغة، مهمّته الأساس ليست اسكات أسرار الإنسان الأكثر غموضا، بل إجبارها على الكلام. دون إعطاء حكمة القرن أدنى اعتبار، يطرح فرويد مشاكل الكبت واللّاوعي في عزّ الحقبة. وبهذا، لا ينوي شفاء عددٍ لا يحصى من الأفراد وفقط، بل شفاءَ الحقبة المريضة أخلاقيا بأسرها، وذلك بأن ينقل من الاخفاء إلى العلم الصّراعَ الأساس الذي أرادت الإبقاء عليه مختفيا.

لم تُغيِّر طريقة فرويد الثورية هذه مفهومنا عن الرّوح فحسب، بل أشارت نحو اتّجاه جديد لجميع الأسئلة المهمّة لثقافتنا الحالية، والمستقبلية. ولهذا، ومنذ ١٨٩٠، فكلّ الذين أرادوا اعتبار اجتهاد فرويد عملا طبّيا بسيطا، هم بذلك يستخفّون بطريقة فظّة به، ويرتكبون خطأً فادحًا، لأنّهم يخلطون، واعين أو غير واعين بين نقطة الانطلاق والهدف. حقيقة أنّ فرويد اخترق سور الصّين لعلم النّفس القديم انطلاقا من الطّب، هي مصادفة دقيقة على الصّعيد التّاريخي، لكنّها بلا أهميّة من ناحية نتائجها. ليس المهمّ عند المبدع من أين أتى، بل إلى أين وصل. قَدِم فرويد من الطّب بالطّريقة نفسها التي قدم بها باسكال من الرّياضيات، أو نيتشه من فقه اللّغة القديم. بلا شكّ، تعطي هذه الأصول نبرة خاصّة لأعماله، لكنّها لا تُحَدِّدُ عظمته ولا تَحُدُّ منها.

الآن وهو يدخل عامه الخامس والسّبعين، فقد حان الوقت لملاحظة أنّ عمله وقيمته، ومنذ فترة طويلة، لم يعودا يعتمدان على التّفاصيل الثّانوية لمعدّل الشّفاء السّنوي عن طريق التّحليل النّفسي لبضع المئات من مرضى عُصابيين، ولا على صحّة كلّ نظرية من نظرياته وافتراضاته. سواء أكانت الليبيدو "ثابتة" جنسيًا أم لا، وسواء كانت عُقدة الخصاء والتّصرّف النّرجسي- ولست أدري أيّ بُنود الإيمان الأُخرى المكرّسة - ستُعلن قداستها للأبد أم لا، فقد أصبحت هذه الأسئلة منذ مدّة طويلة محلّ خلافاتٍ ومُناوشات مذهبية بين الجامعيين، ولا أهميّة لها تُذكر في الإصلاح التّاريخي والمُستدام الذي فرضه فرويد على العالم باكتشافه ديناميكية الرّوح، وتقنيته الجديدة في مواجهة المشاكل النّفسية.

ما يهمّنا هو أنّ رجلًا، ومن خلال رؤيته الإبداعية، قد غيّر فضاءنا الدّاخلي. وحقيقة أنّ هذا كان يتعلّق بثورة حقيقية، وأنّ "ساديته الباحثة عن الحقيقة" كانت ستقلب كلّ مفاهيم عالم الرّوح، فمُمثلّو الجيل الميّت هم أوّل من عرف ذلك؛ وفهموا خطر نظريته. إذ أنّها كانت تُشكّل خطرا حقيقيا بالنّسبة لهم؛ وتفطّنوا مباشرة والرّعب يتملّكهم، هؤلاء المخادعون، المتفائلون، المثاليون محامو الحشمة والأخلاق القديمة، عندما وجدوا أنفسهم مُقابل رجلٍ كان يحرق كلّ الإشارات المُحذّرة، والذي لم يجعله أيُّ طابوه يتراجع، ولم يخفه أيّ

تناقض، والذي في الحقيقة لم يبق أيّ شيء "مُقدّسًا" بالنّسبة له. شعروا بطريقة غرائزية أنّه ومع فرويد - مُباشرة بعد نيتشه المسيح الدّجال- قد جاءَ مُدمِّرٌ عظيم آخر للألواح المُقدّسة القديمة، مُناقضٌ للخداع، والذي أضاء شعاع روتنغن بنظرته كلّ الخلفيات بلا رحمة، ورأى تحت الليبيدو الجنس، وفي الطّفل البريء الرّجلَ البدائي، وفي حميمية الأسرة اللطيفة التّوترات القديمة والخطيرة بين الأب والابن، وفي الأحلام الأكثر براءة غليانَ الدّماء المُلتهب.

منذ اللّحظة الأولى، يُعذّبهم إحساس باطني مؤلم: رجل مثل هذا، والذي لا يرى أيّ شيء غير الأحلام-الرّغبات في قيمهم الأكثر قدسية، ثقافتهم، حضارتهم، إنسانيتهم، أخلاقهم وتقدّمهم، ألن يدفع بمسباره الشّرس أبعد من ذلك؟ ألن ينقلَ هذا المُحطّم للتّماثيل الدّينية أسلوبَه التّحليلي الوقح في النّهاية من الرّوح الفردية إلى الرّوح الجماعية؟ ألن يذهب إلى أبعد من ذلك ليضرب بمطرقته أسس أخلاق الدّولة والأسس الأسرية التي تشكّلت بعد عناء كبير، إلى أن يفكّك فكرة الوطن الأم، وحتّى الرّوح الدّينية بأحماضه الكاوية؟ وبالفعل، فإنّ حدس العالَم المُحتضِر لما قبل الحرب كان على حقّ: لم تتوقّف الشّجاعة التي لا حدود لها، ولا الجرأة الفكرية لفرويد عند أيّ شيء. غير مُكترث بالاعتراضات وبالغيرة، بالضّجيج والصّمت، وبصبر الحرفيّ الذي لا يتزعزع ومنهجيّته، واصل إتقان رافعة

أرخميدس خاصّته حتّى تمكن من استعمالها ضدّ العالم. في العام السّبعين من حياته، باشر فرويد العمل النّهائي لتطبيق طريقته، والتي جرّبها من قبل على الفرد، على الإنسانية جمعاء، وحتّى على الرّب. كانت لديه الشّجاعة ليمضي قُدمًا، مرارًا وتكرارًا، مُتجاوزا الأوهام، إلى العدم الأسمى، إلى هذه العظمة السّرمدية التي لا يوجد فيها إيمان، ولا أمل، ولا أحلام، ولا حتّى تلك التي تأتي من السّماء، أو من معنى أو مُهمّة البشرية.

منح سيغموند فرويد للإنسانية – وهو عملٌ رائع باعتباره عملَ رجلٍ وحيد –فكرةً أوضح عن ذاتها، وأؤكّد على كلمة أوضح، وليس أسعد. لفائدة جيلٍ كامل، عمّقَ المفهوم عن العالم: عمّقَ، قلت، ولم أقل حَسّن. لأنّ المُطْلَقَ لا يمنح أبدا السّعادة، فهو فقط يفرض القرارات. ليس من واجب العِلم هدهدة قلب البشرية الدّائم الطّفولة بأحلام مُطمئنة، بل مُهمّته أن يعلّم الإنسان كيف يمشي مُستقيما ثابتًا على كوكبنا القاسي. وقد كان الدّور الذي لعبه فرويد في هذه المهمّة الضّرورية مثاليا: وفي سياق العمل الذي قام به، تحوّلت قسوته إلى قوّة، وصرامته إلى قانونٍ لا يتزعزع. لم يوجّه فرويد أبدًا الإنسان بهدف مواساته إلى مخرجٍ مريح، ملجأ في فردوس أرضي أو سماوي، لكن دائما وفقط إلى الطّريق الّذي يؤدّي إلى معرفة الذّات، المسار الوعر الذي يوصل إلى أعمق أعماق الأنا. لا تعرف بصيرته التّساهل؛ ولم تُخفّف طريقة

تفكيره بأيّ شكل من الأشكال قساوة حياة الإنسان. حادّ وقاطع مثل ريح الشّمال، بدّد دخوله في جوٍّ خانقٍ الكثيرَ من الضّباب الذّهبي وسحبِ المشاعر الوردية، ولكن أبعد من الآفاق الصّافية، يمتدّ الآن منظورٌ جديد على فضاء الرّوح.

بفضل اجتهاد فرويد، ينظر جيلٌ جديدٌ إلى عصرٍ جديد بعيون مختلفة، ثاقبة أكثر، أكثر حريّة، أكثر علما، وأكثر صدقا. لو كان دُهان الإخفاء الخطير الذي قيّد طيلة قرنٍ كامل الأخلاق الأوروبية قد استُبعد نهائيا، لو أنّنا تعلّمنا كيف ننظر دون حشمة مصطنعة إلى حياتنا، لو أنّ كلمات "الرّذيلة" و"الخطيئة" تجعلنا نرتعش من القرف، لو أنّ القضاة وقد أصبحوا على علمٍ بوجود القوّة المسيطرة على الغرائز الإنسانية، يتردّدون أحيانا قبلَ النّطق بحكم الإدانة؛ لو أنّ المعلّمين يعترفون بصورة طبيعية بالأشياء الطّبيعية؛ والأسرة تعترف بصراحة بالأشياء الصّريحة، لو أنّ في المفهوم الأخلاقي صراحة أكثر وفي الشّباب رفقة أكثر، لو أنّ النّساء يتقبّلن بحريّة أكبر جنسهن ورغباتهن، لو أنّنا تعلّمنا احترام الرّوح المتفرّدة لكلّ شخصٍ وحُزْنَا على الفهم الخالق لِلُغْزِ كيانِنا الرّوحي-كلّ عناصر الارتقاء الأخلاقي هذه؛ فنحنُ وعالمنا الجديد مدينون بكل هذه الأشياء أوّلاً وقبل كل شيء لهذا الرّجل، الذي كانت لديه الشّجاعة لمعرفة ما يعرف، وثلاثة أضعاف هذه الشّجاعة ليفرضَهُ على فكر العصرِ

المُعوِّق والمقاوِم بجبن. قد تكون العديد من التّفاصيل في عمل فرويد مثيرة للجدل، لكن ما أهمّية التّفاصيل! تعيش الأفكار من الإنكار ومن التّأكيد بالقدرِ نفسه، ولا يتواجد عملٌ فقط بالكراهية بل وبالحبّ الذي يُوقِظ. الانتصار الحاسم الوحيد لفكرةٍ ما، والوحيد الذي ما زلنا مستعدّين لتبجيله اليوم، هو دَمجُها وادخالها في الحياة. في وقتنا هذا الذي تبقى العدالة فيه مشكوكا فيها، لا شيءَ يُعيد إحياءَ شعلة الإيمان بهيمنة الرّوح بقدرِ المثالِ الحيّ لحقيقة أنّه يكفي دائمًا لرجلٍ واحدٍ فقط أن يتحلّى بالشّجاعة الحقيقة الباحثة عن الحقيقة ليضيف الحقَّ في الكون بأسره.

«الإخلاص هو مصدر كلّ العبقرية»

بويرن

بورتريه الشّخصية

يغلق الباب الجدّي الصّارم في مبنى سكني في فيينا، منذ قرابة النّصف القرن على الحياة الخاصّة لسيغموند فرويد: حتّى أنّ المرء قد يميل للقول أنّه لم يكن يحظى بحياةٍ خاصّة إطلاقًا، وذلك لأنّ وجودَه الخاص وقد وُضع في الخلف بتواضع، يستمرّ بصمت. سبعون عامًا في المدينة نفسها، أكثر من أربعين عامًا في المنزل نفسه. هناك، فحص المرضى في الغرفة نفسها، القراءة على الكرسيّ نفسه، والعمل الأدبي على المكتب نفسه. ربّ عائلةٍ متكوّنة من ستّة أطفال، دون أيّ حاجةٍ شخصية، دون شغفٍ غير شغف المهنة والنّداء الدّاخلي لرسالته.

لا تضيع أبدًا ولا ذرّةٌ واحدة من وقته المُقنّن -والذي يستخدمه رغم ذلك بسخاء- بسبب الرّتب والوجاهة، أو في تصرُّفٍ عبثي ظاهري: لا يتقدّم أبدًا بهدف الشّهرة، المُبدِعُ أمام العمل المُبْتَكَر؛ عند هذا الرّجل، يخضع إيقاع الحياة بشكلٍ وحيد وكامل لإيقاع العمل المُتواصل، الموحّد والصّبور. كلُّ أسبوعٍ من آلاف وآلاف الأسابيع التي تكوّن سنواته الخمس والسّبعين مُنغلقٌ في حلقةٍ وحيدة من النّشاط المحدّد، وكلّ يوم يشبه الثّاني. طيلة كلّ الموسم الجامعي، يلقي محاضرة أسبوعية؛

يوم الأربعاء مساءً، بانتظام، وفقًا للمنهج السّقراطي، ندوة فكرية وسط تلامذته؛ ظهيرة يوم السّبت، تخصّص للعبة ورق؛ وعدا ذلك، من الصّبح إلى المساء، أو بالأحرى إلى منتصف الليل، كلّ دقيقة، كلّ ثانية من وقته موظّفة للتّحليل، لعلاج مرضاه، للدّراسة، للقراءة وللمُهمّة العلمية.

لا يعرف برنامج العمل الدّؤوب هذا معنى متلازمة الصّفحة البيضاء؛ لم يعرف هذا اليوم الذي لا ينتهي، وطيلة نصف القرن، ولا نصف ساعة واحدة من راحةِ الفكر. بالنّسبة لهذا العقل، العمل الدّائم هو النّشاط الطّبيعي، مثلما يُعتبر طبيعيًّا للقلب الخفقان المُجدّدُ للدّم؛ لا يظهر العمل عند فرويد كفعلٍ خاضعٍ للإرادة، بل على العكس، كوظيفة طبيعيّة دائمةٍ ومُتأصّلة في الفرد.

استمرار هذا الحماس وهذه اليقظة هو على وجه التّحديد الميزة الأكثر إثارة للدّهشة في كيانه الفكري: لتتحوّل الحالةُ الطّبيعية هُنا إلى ظاهرة. منذ أربعين عامًا، يقوم فرويد يوميا بثمانية أو تسعة أو عشرة أو حتى أحد عشر تحليلًا؛ وهذا يعني أنّه في تسع، عشر، إحدى عشر مرّة، يُركّز لمدّة ساعة كاملة، في توتّر بالغ، يكاد يخفق، بطريقة لا يصبح فيها هو و"مريضه" إلا كيانا واحدًا، والذي يستمع ويزن كلّ كلمة، بينما، وفي الوقت نفسه، تسمح له ذاكرته التي لا تخونه أبدًا بمقارنة معطيات التّحليل النّفسي الآني مع كلّ الجلسات السّابقة؛ هو

يعيشُ إذن في قلب هذه الشّخصية الغريبة، بينما في الوقت نفسه، وهو يضع تشخيصا للرّوح، يظلّ يُلاحظ من الخارج. وفجأة، عند نهاية الجلسة، عليه أن يترك هذا المريض ليدخل في حياة المريض التّالي، وهذا ثماني، تسعِ مرّات في اليوم - مُحتفظًا بداخله، دونَ تدوين ملحوظات ولا حِيَلِ استذكارية، بالخيوط المنفصلة لأقدار المئات من النّاس، مُتمكّنًا منها، والتي يميّز أدقّ تشعّباتها.

عملٌ متغيّر باستمرارٍ كهذا يتطلّب يقظةَ العقل، واستعدادَ الرّوح، وتوتّر أعصابٍ لا يمكن لشخصٍ غيره أن يتحمّله لأكثر من ساعتين أو ثلاث. لكن حيوية فرويد المُذهلة، قوّته الخارقة في مجال القدرة الفكرية، لا تعرف لا الإرهاق ولا التّراخي.

في وقت جدّ مُتأخر من المساء، بعدما ينتهي يوم العمل التّحليلي من تسع أو عشر ساعات في خدمة الإنسان، حينها فقط يبدأ العمل الآخر الذي يتمثّل في تطوير النّتائج بطريقة إبداعية، عملٌ يظنّ بقيّة العالم أنّه عمله الوحيد. ويتمّ هذا الإنجاز الهائل غير المنقطع الممارَس على آلاف البشر، والذي سيؤثّر على الملايين، على مدار نصف قرن، دون مساعدين، دون سكرتيرات، دون مُعاونين؛ كلّ رسالة من فرويد مكتوبة بخطّ يده، كلّ بحث من أبحاثه مكتمل بعمله وحده، ودون أن يطلب المساعدة من أيٍّ كان، يعطي كلّ أعماله شكلها النّهائي. تحت السّطح العاديّ المظهرِ لهذا الوجود، وحده الانتظامُ العظيم لقوّته

الإبداعية يخون عُنصرَ الشّيطان الحقيقي بداخله. فقط في مجال الإبداع، تُبرِز هذه الحياة العادية ظاهريا ما يوجد بها من مُتفرّد وغير قابل للمقارنة.

أداة الدّقة هذه، والتي تشتغل طيلة عقود دون أن تتوقّف أو تضعف أو تحيد، ستكون مُستحيلة الوجود لو لم يكن جوهرُ مادّتِها مثاليا. مثلما هو الحال عند هاندل، روبنس، وبالزاك، مبدعون غزيرون مُتحمّسون، ينبع الإفراط الفكري عند فرويد من صحّة بدنية رائعة. حتّى بلوغه سن السّبعين، لم يُصَبْ هذا الطّبيب العظيم مرّة واحدَة بمرض خطير، ولم يحسّ هذا المُستكشف العميق لجميع الأمراض العصبية بأدنى اضطراب عصبي؛ هذا المُحقّق الواعي بكلّ اضطرابات الرّوح، هذا المختصّ الجنسي الذي استُنكِر مرارًا وبشدّة، ظلّ طوال حياة بأكملها في تعبيراتِ حياته الشّخصية على اتّساقٍ واحد وفي صحّة مُذهلة. لم يعرف هذا الجسد حتّى التّوعكات العادية والتّي تأتي لتُزعج العمل الفكري، ولا الصّداع النّصفي، أو التّعب.

لعقودٍ كاملة، لم يحتج فرويد لاستشارة زميلٍ له من الأطباء، ولم يجبره أيّ توعّك على تأجيلِ محاضرة. وفقط عند سنٍّ متقدّم حاول مرضٌ خبيث كسر هذه الصّحة المُتعدّدة الجبهات. لكن عبثًا حاول، بالكاد التأم الجرح حتّى، ودون أيّ انتقاص، عادت الحيوية القديمة على الفور. بالنّسبة لفرويد، تسير الصّحة بالموازاة مع التّنفس،

واليقظة مع العمل، والإبداع مع الحياة. وكلّما كان توتّر اليوم حيويًا مُستمرًا، كلّما اكتمل الاسترخاء الليلي بالنّسبة لهذا الجسم الذي قُدّ من صخر. نوم قصير، لكنّه مكتمل، يجدّد من صباح إلى صباح آخر هذه القوّة الحيوية الطّبيعية ومرونة العقل في الوقت نفسه بشكل رائع. عندما ينام فرويد، فهو ينام نومًا شديد العمق، وعندما يسهر، فهو مُتيقّظ كليًا بشكل لا يصدّق.

لا تتناقضُ الصّورةُ الخارجية للشّخص البتّة مع توازن قواه الدّاخلية الكامل. انسجام تامّ لكلّ التّقاسيم، ومظهر مُتناغم بشكل أساسي. ليست القامة لا كبيرة جدًا، ولا قصيرة جدًا، وليس الجسد لا بالثّقيل جدًا ولا بالضّعيف جدًا: يوجد عنده في كلّ شيء وفي شتّى الجوانب مُتوسّطٌ مثالي بالفعل. منذ سنوات، يأس رسّامو الكاريكاتير أمام هذا الوجه البيضاوي المنتظم بانسجام، والذي لا يعطي أيّ إمكانية للمبالغة في الرّسم. وعبثا حاولوا وضح البورتيهات التي تعود إلى شبابه جنبا إلى جنب من أجل التقاط بعض السّمات المُهيمنة.

وفي سنّ الثّلاثين، الأربعين، أو الخمسين، لا تُظهر لنا تلك الصّور سوى رجل وسيم، ذكوري، سيّد بتقاسيم عادية، شديدة العادية ربّما. تخون العين الدّاكنة اللون، المُركّزة، المفكّر الرّوحي، لكن مع أحسن الرّغبات نيّةً، لا نجد في هذه الصّور الفوتوغرافية الباهتة سوى واحدٍ من وجوه الأطبّاء التي تؤطّرها لحية أنيقة، برجولية مثالية، مثل الوجوه

التي كان يحبّ أن يرسمها لينباخ وماكارت، قاتمة، جادّة ولطيفة، لكن لا تكشفُ في نهاية الأمر شيئا. نعتقد بالفعل أنه يتعيّن علينا التّخلي عن أي دراسة شخصية أمام هذا الوجه المُنغلق في انسجامه الخاصّ. لكن فجأة، تشرع الصّور الأخيرة في التّحدث. وحده السّن، والذي يُذيبُ عند معظم النّاس التّقاسيمَ الشّخصية ويفتّتها إلى فخّار رمادي، وحدها الحياة الأبوية، الشّيخوخة والمرض، بمقصّها المبدع الخلّاق، تُعطي لوجه فرويد طبعا خاصّا لا يمكن إنكاره. منذ أن بدأ شعر رأسه يشيب، ومنذ أن أصبحت اللحية لا تؤطّر بكثافة الذّقن العنيد، والشّارب يظلّل الفم الحاد بدرجة أقل، ومنذ أن برز هيكل وجهه العظمي الذي يظلّ مرنًا، كُشِفَ شيءٌ ما، قاسٍ، عدائي بلا شكّ: إرادة طبعه الجامحة، المُخترقة والتي تكاد تكون غاضبة.

النّظرة الأعمق، الأدكن، والتي كانت في وقت مضى متأمّلة ببساطة، أصبحت الآن حادّة وخارقة؛ بينما تقسم طيّةٌ مريرة ومرتابة مثل جُرح الجبهةَ المكشوفةَ التي خَطّتْها التّجاعيد. تنغلق الشّفاه الرّقيقة المضمومة وكأنّها تطوّق تعبيرًا أنّ "لا"، أو "هذا ليس صحيحا". لأوّل مرّة نحسّ على الوجه الفرويدي صرامة وقساوة كيانه، ونخمّن أنّ هذا ليس العجوز الأشيب الطّيب الّذي أصبح مع تقدّمه في السّن ألطف واجتماعيا أكثر، بل المحلّل الذي لا يعرف الرّحمة، والذي لا يترك نفسه ينخدع بأيّ شيء، وفوق كلّ هذا لا يريد أن يُخدَع. رجل

نخاف أن نكذب بحضرته، لأنّه بنظرته المرتابة الثّاقبة كالسّهم المنطلق، يقطع الطّريقَ أمام أي تهرّب كاذب ويمنع مُسبقا كلّ فرار، رجل بوجه استبدادي ربّما، أكثر منه مُحرِّرا، لكنّه يتمتّع بقدرة رائعة على الإختراق؛ ليس فقط مجرّد مُلاحظٍ عادي، بل مُحلّل لا يرحم.

لا يودّ المرء أن يجعل قناع هذا الرّجل يتلاشى، أن يُنقص من قسوته الأسطورية، أو عناده الحماسي الذي يشتعلُ في عين المحارب القديم التي تكاد تكون مُهدّدة. إذ لو أنّ فرويد افتقر لهذه الطّاقة المشحوذة بحدّة والعنيدة المُصرّة، لافتقد عمله أيضا أفضل ما يحتويه، وأكثر ما فيه حسماً. مثلما فعل نيتشه بالمطرقة، مارس فرويد الفلسفة طيلة حياته بالمشرط: وهذه الأدوات بالتّحديد لا يُمكن أبدًا أن تُعامَل بأيدٍ مُتساهلة ولطيفة.

اللطف، التّساهل، التّهذيب والتّعاطف كلّها صفات يستحيل التّوفيق بينها وبين الفكر الراديكالي لطبيعته الإبداعية على الاطلاق، والتي كان هدفها ومهمّتها هي كشف التّطرفات فقط، وليس التّوفيق بينها. تشترط إرادة فرويد الكفاحية دائما تأييدًا صريحا أو مُعارضةً صريحة، "نعم" أو"لا" ، ولكن ترفضُ "من جانبٍ ومن جانبٍ آخر" ، كما ترفض "الحلول الوسط" ، و"ربما" .

عندما يتعلّق الأمر بالقانون والحقّ، أو بأن يكون على صواب، لا يعرف فرويد لا تحفّظات ولا اعتبارًا ولا تساهلا، ولا مُساومة أو رحمة:

مثل "يهوه" الأبدي، هو يغفر للمُرتَدّ بسهولة أكثر من المُشكّك الفاتر. التّقريبات بلا قيمة بالنّسبة له، ولا ينجذب إلّا للحقائق الأكيدة بنسبة مئة بالمئة. كلّ غموض، سواء في العلاقات الشّخصية من إنسان لآخر، أو الفكر البشري الذي نُسمّيه الأوهام، يُثير حتمًا حاجَته العنيفة والمتزايدة للتّقسيم، والتّحديد، والتّرتيب والتّنظيم- تريد نظرته إبراز الظّواهر بوضوح تحت حدّة الضّوء غير المنقطع.

تأتي الرّؤية الواضحة، والتّفكير الواضح، والتّصرف الواضح، لفرويد دون جهد أو عناء، هي ليست فعلًا إراديا مطلقًا: الحاجة للتّحليل عنده غريزيةٌ، فطريةٌ، تكوينيةٌ، عُضوية لا تُكبَح. عندما لا يفهم فرويد شيئًا ما بشكل كاملٍ وفوري، فهو غير قادر على تبنّي وجهةَ نظرِ أيٍّ كان؛ ما لم يبدُ له شديدَ الوضوح في أعماق ذاته، لا يمكن لأحد أن يوضّحه له. عيناه، مثل عقله، استبدادية لا تعرف التّسامح؛ وفي هذه الحرب تحديدًا، عندما يقف وحيدا مواجها القُوّة السّاحقة، تنطلق الغريزة العُدوانية لإرادته الفكرية التي صنعتها الطّبيعة حادّةً قاطعة.

قاس، صعب وصارم تجاه الآخرين، ليس فرويد بأقلّ قساوة وصرامة تجاه نفسه. وقد تعوّد على عدم الثّقة، وعلى كشف أدنى زيف في الطّيات الأكثر سريّة للّاوعي حتّى، طبقةً تحت الأخرى، وأن يكشف وراءَ كلّ اعتراف اعترافًا أكثر صدقا، وتحت كلّ حقيقة حقيقةً

أعمق، فهو يُطبّق على شخصه هذه اليقظة التّحليلية. ولهذا السّبب فإنّ كلمة "المُفكّر الجريء" المستخدمة كثيرًا؛ تبدو لي أنّها لا تُناسِب فرويد كثيرًا. فلا مجالَ للارتجالِ في فِكره، وبالكاد يتواجدُ به قليلٌ من الحدس. ليس هو بالأخرق الذي يصيغ عباراته بتسرّع: فقد يتردّد أحيانًا سنوات بأكملها قبل أن يُحوّل عَلنًا افتراضًا إلى تأكيد؛ تُمثّل بالفعل التّعميمات المتسرّعة، والقفزات الفكرية المُخاطرة بالنّسبة له لعبقريّة بنّاءةٍ كعبقريته عبثيةً وتفسيرًا خاطئًا. وهو يتقدّم بخطى صغيرة، بحذر وتحفّظ، ودون شعور بالحماس، كان فرويد أوّل من يكشف ما هو غير أكيد؛ نجد في كتاباته العديد من التّحذيرات التي يُوجّهها لنفسه، مثل: "ما هذه إلّا فرضية"، أو: "أعرف أنّه، وفي هذا الصّدد، ليس عندي من جديدٍ يُذكر يمكن أن أُضيفه".

تبدأ شجاعة فرويد الحقيقية متأخرة، فقط مع الثّقة في النّفس. وفقط عندما يكون كاسر الأوهام هذا الذي لا يعرف الشّفقة قد أقنع نفسه، وانتصر على شكّه، وتغلّب على خوفه من أنّه يُضيف للعالم وهمًا جديدًا؛ حينها يطرح وجهة نظره. لكنّ بمجرد اعترافه ودفاعه عن فكرة ما عَلنًا؛ فهي بذلك تدخل في لحمه ودمه، وتُصبح جزءًا من كيانه الفكري، ولا يمكن لأيّ "شيلوك" أن يقطع أونصة واحدةً من جسده الحي. يُؤكّد يَقينٌ فرويد نفسَه دائما مُتأخرًا: لكنّه مع تحققه، يستحيل كسره بعدها.

هذه المثابرة، هذه الطّاقة التي تسمح له بالحفاظ على وجهة نظره ضدّ الجميع ورغم كلّ الصعاب، نعتها خصوم فرويد بأنّها دوغماتية، وحتّى أنصاره اشتكوا منها في السّر أو في العلن. لكنّ هذا السّمة النّزيهة في فرويد هي جزءٌ لا يتجزّأ من طبيعته: وهي تنبعث من موقف اختياري، بل عفوي، ومن طريقة متفرّدة في النّظر إلى الأشياء. ما يقع نظره المُبدع عليه، يراه كما لو أنّ أحدا لم يره من قبله. عندما يفكّر، ينسى أنّ الآخرين فكّروا في الموضوع نفسه.

ويرى مشاكله بطريقة طبيعية لا لُبس فيها، وكيفما فتح كتاب الرّوح الغامض للبشرية، فهو دائما يجد صفحة جديدة؛ قبل حتّى أن يلمسها بفكره المُنتقد، يكون نظره المبدع قد حقّق الإنجاز. يُمكن تصحيح خطأ متعلّق بالرّأي، لكن يستحيل تغيير التّصور الإبداعي للنّظرة: فالرّؤية مُتحرّرة من كلّ مؤثّرات، والابداع يتجاوز الإرادة؛ ما هي إذن حقيقةُ ما نَصِفُ بالإبداع، غيرَ رؤية أشياءٍ عتيقة ثابتة كما لو أنّ نجمة النّظرة البشرية لم تُنرها أبدًا، والتّعبير عمّا قيل ألفَ مرّة من قبل بعُذريةٍ كما لو أنّ فم بشرٍ لم يقله قط؟ بما أنّه مُستحيل التّعلم، سحرُ الرّؤية الحدسية للباحث هو في الآن ذاته مُستحيلُ التّلقين، والعناد الذي تحافظ به طبيعة عبقرية على نظرتها الأولى الفريدة ليس عنادًا إطلاقا، بل ضرورةٌ لا مفرّ منها.

ولهذا السّبب، لا يحاول فرويد أبدًا إقناعَ أو سِحْرَ قارئه، أو المُستَمِع

إليه. هو فقط يُقدّم الطّرح. يرفض صدقُه المُطلق أن يخدم حتّى الأفكار التي تبدوا له غايةً في الأهمّية بشكلٍ شعري جذّاب، ويرفض بتلطيفه للصّيغة أن يُسهّل على الحسّاسين هضمَ الأجزاء الصّعبة والمريرة من الحقيقة. إذا ما قورِن نثره بكتابة نيتشه التي تُشعر القارئ بالنّشوة، والتي تُفرقع الألعاب النّارية الأكثرَ جنونا للفنّ وللصّنعة الفنية، فكتابته هو تبدو لأوّل وهلة خالية من الألوان، بسيطةً وباردة.

نثر فرويد لا يسحر، ولا يُروِّج؛ يتخلّى كُليًا عن كلّ نوعٍ من الشّعرية، وكلّ موسيقيّة في الكتابة (فهو يفتقد، كما يعترف به شخصيا، لهذا الميول الدّاخلي للموسيقى-طبعًا بالمعنى الذي قصده أفلاطون، والذي يتهمّها بإزعاج صفاء تفكيره). هذا بالتّحديد هو هدف فرويد الوحيد، والذي يتصرّف حسب مقولة ستاندال: "كي يكون المرء فيلسوفًا جيّدا، عليه أن يكون حادًا، واضحا، دقيقًا دون إيحاءات". يبدو له الوضوح في اللّغة، كما في جميع المظاهر البشرية، هو الأمثل وهو الغاية؛ ويُصنّف كلّ القيم الفنيّة على أنّها ثانويةٌ مقارنةً بهذا النّقاء والنّور، بهذه الطّريقة يتحصّل على الحواف الماسية المشحوذة التي يدين لها بمرونة أسلوبه التي لا تُضاهى.

نثر لاتيني، نثر روماني، خالٍ من كلّ زخرفة، مُلتصقٌ بصرامة بموضوعه، فهو لا يحلّق أبدًا فوقه على غرار الشّعراء، بل يُعبِّر عنه بكلمات قاسية وخشنة. لا يُزيّن أو يُجمّل، لا يُراكِم الكلمات البرّاقة،

ليس كثيفا، ويتفادى التّكرار؛ هو، في حدود بخيلٌ بالصّور والمقارنات. ولكن عندما يختار واحدة، تكون هذه الأخير مُقنعة بقوّة، وتضربُ كالرّصاصة. تتميّز بعض صيغ فرويد بالحساسية الشّفافة للأحجار الكريمة المنحوتة المنتصبة في الوضوح الجليدي لنثره، مثل النّقوش التي تُرصّع أواني الكريستال. كلّ واحدة منها لا تُنسى. في سياق براهينه الفلسفية، لا يحيد فرويد ولا مرّة عن المسار المستقيم - فهو يكره الإطناب الأسلوبي مثلما يكره الانحرافات الفكرية- وفي مجمل عمله الغزير، لا نجد ولا جملة واحدة لا تكون مفهومة بوضوح، دون عناء، حتّى بالنّسبة لإنسانٍ صاحبِ ثقافة متوسّطة. تعبيره، مثل فكره، يهدف دائما إلى دقّة تكاد تكون هندسية: وحده أسلوب قاتم، لكنّه في الحقيقة منير بشدّة، أمكنه أن يخدم جهوده التي تهدف إلى الوضوح.

يقول نيتشه أنّ كلّ عبقري يرتدي قناعا.

وقد اختار فرويد أحد أكبر الأقنعة استعصاءً على الفهم: إنّه قناع السّرية. تُخفي حياتُه الخارجية قوّة عملٍ شيطانية تحت هيئة بُرجوازية رصينة شبه تافهة؛ ووجهه: العبقريةَ الخلّاقةَ تحت تقاسيم هادئة مُنتظمة. يكتسي عملُه الجريء والثّوري إلى أقصى حد، مظاهرَ الأساليب الجامعية المتواضعة لعلم طبيعي دقيق. وتُخفي بُرودة أسلوبه عديمة الألوان الفنّ البلّوري لقوّته الإبداعية. عبقري الرّصانة، يُحِبُّ أن يُرِيَ الجزءَ الرّصين الذي في كيانه، لا أن يُظهر ما هو عبقري. في

البدء يظهر فقط ما هو مُعتدل، ما هو خارق للعادة يظهر بعد ذلك، وبعمق. في كلّ شيء، يظلّ فرويد أكبرَ ممّا يريد إظهاره، ومع ذلك، في كلّ من هذه المظاهر، يبقى الشّخصَ نفسه، لا يحيد أبدا في تعبيره عن كيانه. لأنّه وحيث يُسيطر ويزدهر في الإنسان قانون الوحدة الأسمى، فهو يتألّق ويتجسّد مُنتصرًا في جميع عناصر كيانه، حياته، عمله، أسلوبه ومظهره.

نُقطة الإنطلاق

"في فترة شبابي، لم يكن لدي أيُّ تفضيلٍ خاصٍّ لمنصبِ الطّبيب أو مهنته، ولا حتّى لاحقًا بالمناسبة": يعترف فرويد في "قصّة حياته"، بتلك الصّراحة الصّارمة تجاه نفسه التي تميّزه. لكن تأتي لتُضاف إلى هذا الاعتراف هذه الكلمات الغنّية بالشّروحات: "كنتُ بالأحرى متأثّرا بنوعٍ من التّعطش للمعرفة التي تتعلّق بالعلاقات الإنسانية أكثر من الأُشياء الطّبيعية". لكن لا وجود لأيّ فرع يتوافق مع هذا الميول الشّخصي، فبرنامج الدّراسات الطّبية بجامعة فيينا لا يحتوي على مادّة تدريسية تحت تسمية "العلاقات الإنسانية". ومن ناحية أخرى، بما أنّ على الطّالب الشّاب أن يفكّر عمّا قريب في كسب لقمة عيشه، فلا يمكنه الانغماس مطوّلا في ميولاته الفكرية الشّخصية، ويتعيّن عليه أن يمشي بصبر رفقة زملائه على المسار الطّويل، وذلك طيلة الاثني عشر سداسيّا المُقرّرة. بصفته طالبا، بدأ فرويد بالعمل الجدّي في أبحاثٍ جامعية مستقلّة. بينما، وعلى العكس من ذلك، كان يؤدّي واجباته الجامعية وحسب اعترافه الصّريح: "بنوعٍ من الإهمالِ الشّديد"، ولن يتحصّل على شهادة الدّكتوراه في الطّبّ إلّا في عام

١٨٨١، وهو بسنّ الخامسة والعشرين، "مع تأخيرٍ مُعتبر".

مصيرُ الكثيرين إذن هو ذاك الذي يتحضّر بداخل هذا الرّجل الذي لم يتأكّد من طريقه بعد، بداخله نداءً باطني للرّوح، لكن عليه أن يستبدله قبل كلّ شيء بمهنةٍ هو لا يتوق إليها. لأنّه ومنذ البدء، لا تجذب حرفة الطّب، ولا الجزءُ التّقليدي فيها ولا التّقنية العلاجية مُطلقا هذا العقلَ المركّز على الشّمولية. هو الذي وُلد طبيبا نفسانيا في جوهر كيانه -رغم انّه سيجهَل مطوّلا تلك الحقيقة- يريد الطّبيب الشّاب رغم ذلك غريزيا نقلَ مجال نشاطه النّظري بالقُرب من فضاءات النّفس. واختار إذن بسبب ذلك طبّ الأعصاب كتخصّص، واشتغل على علم تشريح المخ، إذ لا وجود حينها في المدرّجات الطّبية المتخصّصة لعلمِ النّفس الخاص بالفرد المدروس على حدة؛ علم الرُّوح هذا الذي لم يعد ممكنًا اليوم الاستغناء عنه، تعيّن على فرويد اختراعه لنا.

يعتبر التّصور الميكانيكي لتلك الفترة أنّ كلّ خللٍ في الرّوح مُجرّد اضطرابٍ في الأعصاب، وأنّه فساد؛ ساد حينها الاعتقاد الواهم بالقدرة يومًا ما على حساب ميكانيزم الرّوح بدقّة، وتصحيح كلّ انحرافٍ به، وذلك بفضل علم مُعمَّق بالأعضاء، وبفضل تجارب حيوانية. ولهذا السّبب، كانت ورشةُ علم النّفس في ذلك الوقت تتواجد في مخبر الفيزيولوجيا، حيثُ ظُنّ بأنّ التّجارب هناك ستكون حاسمة

باستخدام المبضع الصّغير والمشرط والمجهر وآلات تسجيل التّفاعل العصبي المستعملة في قياس اهتزازات وتشنّجات الأعصاب. توجّب على فرويد بدوره الجُلوسُ أوّلاً إلى طاولة التّشريح والبحث، مُستخدمًا جميع أنواع الأجهزة التّقنية عن الأسباب التي، في الواقع، لا تتجلّى أبدًا على شكلٍ ماديّ. وعمل لعدّة سنوات في مختبر عالِمَيْ التّشريح المشهورَيْن "بروك" و"ماينارت"، واللذين سرعان ما أدركا وجود الموهبة الفطرية للاكتشاف الإبداعي عند المُساعد الشّاب.

وسعى الاثنان إلى كسبه، وجعله متعاونًا دائمًا معهما. حتّى أنّ "ماينارت" أعطاه الخيار، لو هو أراد ذلك، أن يقدّم الطّبيب الشّاب درسًا في تشريح الدّماغ بدلاً عنه. لكنّ قوةً داخليةً ما تُقاوم بطريقة لا واعية عند فرويد. ولعلّ حدسَه كان قد شعر بقَدَرِه العظيم الذي ينتظره؛ لكن مهما يكن، اعتذر عن الاقتراح المُشرِّف. علاوة على ذلك، فأعماله في علم الأنسجة وأبحاثه السّريرية كانت كافية تمامًا لمنحه منصب الأستاذ المُحاضر في علم الأعصاب في جامعة فيينا.

أن يكون المرء أستاذً محاضرا في طب الأعصاب، بالنّسبة لطبيب فقير وهو فقط بسن التّاسعة والعشرين، هو منصب يُحسد عليه، ووظيفة مُربحة. على فرويد الآن أن يعالج مرضاه، سنةً تلو الأخرى، دون أن يحيد عن المسار، وفقا للطّريقة والأسلوب الأكاديمي المُتعارَف عليهما، واللذين دُرِسَا بكلّ ضمير، كان بإمكانه أن تكون له مسيرةً

مهنية مذهلة. لكن تتجلّى فيه بالفعل غريزة ضبطِ النّفس المميّزة، والتي ستقوده طوال حياته دائمًا إلى المضّي قدما نحو الأمام، وإلى ما هو أبعد. الأمر هو أنّ هذا الأستاذ الشّاب يُدرك بأمانةٍ ما يُخفيه جميع أطباء الأعصاب بينهم، وغالبا عن أنفسهم، والذي مفاده أنّ كلّ التّقنيات العلاجية النّفسية المتواجدة والمتعارف عليها في العام ١٨٨٥ ، غير مُجدية تماما، وعاجزة عن مدّ يد العون، فهي تجد نفسها في طريق مسدود.

لكن كيف بالإمكان ممارسة طبٍّ بديل ما دام هذا هو الوحيد الذي يُدرّس في فيينا؟ ما كان بالإمكان تعلّمه من أساتذة فيينا في عام ١٨٨٥ (وأكثر من ذلك بكثير)، قد تعلّمه الأستاذ الشّاب حتّى آخر التّفاصيل: الملاحظة السّريرية الدّقيقة، والتّشريح الشّديد الدّقة، دون نسيان منافع مدرسة فيينا الأساسية، والمتمثّلة في الدّقة الصّارمة والاجتهاد الدّؤوب. وعدا عن ذلك، ما الذي بإمكانه استخلاصه من طرف من لا يعلمون أكثر ممّا يعلم؟

ولهذا، مَارَسَ الخبرُ الذي يقول بأنّ في باريس، ومنذ سنين عدة، يُمارس طبّ الأعصاب بطريقة مختلفة عن تلك المتبنّاة والمعترف بها في النّمسا على فرويد إغراءً لا يُقاوَم. علم فرويد -مُتفاجئًا ومُشكّكا، لكنّه مُنجذب بشدّة- أنّ "شاركو"، المُتخصّص في التّشريح الدّماغي، يقوم بتجارب متفرّدة باستخدام التّنويم المغناطيسي السّيئ السّمعة

والملعون، والّذي حُرِّم استعماله في فيينا منذ اليوم الذي -والشّكر للرّب- طُرِدَ فيه من المدينة "فرانز أنطون ميسمر".

سرعان ما يُدرك فرويد أنّه ومن بعيد، واستنادًا فقط على ما تنشره المجلّات العلمية من مقالات طبية، يستحيل عليه تكوين فكرة حقيقية عن تلك التّجارب. عليه الحضور ورؤيتها شخصيا، ليتمكّن من الحكم عليها. ومُسترشدًا بهذا الحدس الدّاخلي الغامض الذي يجعل المبدِعين يخمّنون مسارهم الحقيقي، قرّر فرويد الذّهاب إلى باريس. وقد قبل أستاذه "بروك" طلب الطّبيب الشّاب الذي لم يكن يملك ما يكفي من المال عندما تقدّم بطلب منحةِ سفرٍ إلى الخارج. وأُعطيت له. وفي عام ١٨٨٦، وبغرض بدء دراسات جديدة، وليتعلّم قبل أن يُدَرِّس، غادر الأستاذ الشّاب مُتّجها إلى باريس.

ليجد نفسه على الفور في جوٍّ مُختلف. على الرّغم من أنّ "شاركو"، مثل "بروك"، قادم من التّشريح المرضي، إلّا أنّه تجاوزَه ببون شاسع. في كتابه الشّهير، "الإيمان الشّافي" La foi qui guérit، درس الفرنسي العظيم الظُّروفَ النّفسية للمعجزات الدّينية التي رُفضت سابقا على كونها مستحيلة الحدوث من طرف الغطرسة الطّبية العلمية، ووضع بعض القوانين النّموذجية في تجلّياتها. بدلاً من إنكار الحقائق، بدأ في تفسيرها وبنفس الحيادية وانعدام الأحكام المسبقة، قارب كلّ أساليب العلاج الإعجازية، بما في ذلك طريقة التّنويم

المغناطيسي الشّهيرة.

لأوّل مرّة، يلتقي فرويد بعالمٍ والذي، خلافًا لمدرسته في فيينا، لا يرفُض الهستيريا مسبقا بازدراء باعتبارها مجرّد مُحاكاة، لكنّه يتفحّص مرض الرّوح هذا، الأكثر إثارةً للاهتمام، لأنّه الأكثر تقلّبا ومرونة والأكثر ثراءً في تجليّاته، ويثبت أنّ تلك النّوبات والتّشنّجات هي عواقبٌ للاضطرابات الدّاخلية، وبذلك فطبيعة مُسبّباتها حتمًا نفسية. خلال المُحاضرات العامّة، يُبرهن "شاركو" على مرضى مُنوّمين مغناطيسيا أنّه يمكن إحداثُ حالات الشّلل النّموذجية أو تنحيتها عن طريق الإيحاء، وذلك في أيّ لحظة من حالة النّوم المغنط، وبذلك، فتلك الحالة ليست نتاج ردّات فعلٍ فيزيولوجية بسيطة، بل هي خاضعة للإرادة. على الرّغم من أن تفاصيل مبدأه العلمي هذا لم تتمكّن من إقناع الطّبيب الشّاب القادم من فيينا، إلا أنّ هذا الأخير انبهر بشدّة من كون طب الأعصاب في باريس لا يعترف فقط بالأسباب الجسدية ويأخذها بعين الاعتبار، بل أيضًا بالنّفسية وبالميتافيزيقية.

ويرى بغبطة، أن علم النّفس يقترب هنا من علم الرّوح العتيق، ويجد نفسه مُنجذبا لهذه الطّريقة الفكرية أكثر من أيّ شيء آخر تعلّمه إلى غاية ذلك الحين. في حيّز النّشاط الجديد هذا، يسعد فرويد لتمكّنه من أن يوقظ عند أساتذته اهتماما خاصّا -لكن هل

يُمكن أن نصف بالسّعادة ما هو ليس في الأساس سوى تبصّر فطري أبدي ومتبادل للعقول المتفوّقة؟ - مثلما سبق وأن حدث مع "بروك"، ماينار" و"نوثانجل"، يُميّز "شاركو" عند فرويد على الفور طبيعةً خلّاقة مبدعة، ويجذبه إلى مجاله الحميم. ويعهد إليه بترجمة أعماله إلى اللغة الألمانية، ويكرمه بثقته.

عندما عاد فرويد بعد بضعة أشهر إلى فيينا، كانت صورته الدّاخلية عن العالم قد تغيّرت جذريا. يُحسُّ بغموض بأنّ مسار "شاركو" لا يناسبه تماما، فهذا العالم بدوره لا يزال يهتمّ بشدّة بالتّجارب الحسّية الجسدية، وقليلًا جدّا بما تكشفه في مجال الرّوح والعقل. لكن استطاعت الشّهور القليلة تلك لوحدها جعل إرادة استقلال وشجاعة جديدة تنضج عند الطّبيب الشّاب. بوسعه الآن أن يشرع في عمله الإبداعي الخلّاق المستقل.

صحيح أنّه تبقّى أوّلا إجراء شكلي صغير يجب استكماله. فعند عودته إلى الجامعة، يتعيّن على أيّ مُستفيد من منحة الدّراسة في الخارج أن يقدّم تقريرًا عن تجربته الأكاديمية هناك. ويُقدّم فرويد تقريره إلى جمعية الأطباء. يتحدّث فيه عن أساليب "شاركو" الجديدة، ويصف تجارب التّنويم المغناطيسي التي يجريها في جامعة "سالبيتريار"، لكن، ومنذ حادثة "فرانز أنطون ميسمر"، تُشكّك الأوساط الطّبية في فيينا بقوّة في كلّ ما يَمتّ للتّنويم المغناطيسي

بِصِلَة من قريب أو من بعيد.

بابتسامةٍ مُحتقِرة، رُفِض تقرير فرويد الذي يفيد بأنّه من الممكن اصطناعيا إحداث أعراض الهستيريا؛ أمّا تصريحه عن وجود حالات للهستيريا الذّكورية، فقد سلّى زملاءه وأثار ضحكهم. في البداية، يربّت بعضهم على كتفه بنيّة صادقة، ضاحكين عليه لأنّه ترك نفسه يقتنع بهراء وخرافات في باريس؛ لكن بما أنّ فرويد لا يُغيّر رأيه، أُغلق بعدها في وجه هذا المرتدّ غير الجدير حرمُ مخبر طبّ الأعصاب المقدّس، حيث – والشّكر للرّب-، ما زال علمُ نفسٍ "جادّ وعلمي" يُمارَس.

منذ ذلك الحين، أصبح فرويد شخصًا خارجًا عن القطيع تخشاه جامعة فيينا كثيرا، ولم يتخطّ أبدًا بعدها عتبة جمعية الأطباء، ولم يتحصّل إلّا بفضل الحماية الخاصّة لمريضةٍ شديدة النّفوذ (مثلما يعترف بذلك شخصيا بمرح)، وبعد مرور عدّة سنوات، على لقب "الأستاذ" الاستثنائي. لكنّ الجامعة لا تتذكّر إلّا مُكرهة أنّه ينتمي إلى أعضاء هيئتها الأكاديمية. وفي يوم عيد ميلاده السّبعين، تُفضّل صراحة تناسي الأمر، وتمتنع عن إرسال أيّ رسالة أو تهنئة. بحياته، لم يحز فرويد على كرسي الأستاذية، وبقي ما كان عليه دوما: أستاذا استثنائيا وسط أساتذة عاديين.

بمعارضته لمنهجية الأسلوب الميكانيكي لطبّ الأعصاب الممارس في

فيينا وتمرّده عليها، طبٌّ كان يفرض على نفسه شفاء المرضى حصريا عن طريق إثارةٍ جلدية لمسية، أو عن طريق الأدوية؛ لم يُفسد فقط فرويد مسيرته المهنية الأكاديمية فحسب، لكنّه فقد بذلك مرضاه في عيادته الخاصّة. وعليه التصرف لوحده الآن. وبالكاد تجاوَز الجانب السّلبي من المسألة: لو أنّه متأكّد أنّه وبدراسة الدّماغ التّشريحية، وباستعمال جهاز لقياس ردود الفعل العصبية، لا يوجد أملٌ في التّوصل إلى اكتشافات حاسمة في علم النّفس، وأنّها وحدها منهجية مغايرة تمامًا، وبنقطة انطلاق مُختلفة تمامًا، من شأنها أن تمكّن من الاقتراب من تشابكات الرّوح الغامضة، فقد أصبح الأمر يتعلّق الآن بإيجاد، أو بالأحرى خلق هذه الطّريقة. وهذا ما كرّس فرويد نفسه له بشغفٍ طيلة الخمسين سنة التي تلت. قدّمت له باريس ونانسي بالفعل بعض المؤشرات التي وضعته على الطّريق. لكن في الفكر العلمي، مثلما هو الحال في الفن، لا يمكن لفكرة وحيدة أن تنتج تصميما نهائيا؛ فالإخصاب الحقيقي لا يحدث إلّا عندما تتداخل الفكرة مع التّجربة. وهناك، لا حاجة لأكثر من دفعٍ صغير لتُؤكّد القوّة الخلاقة المبدعة ذاتها.

ما سيولّد هذا الدّفع هو تعاونه الودّي مع الدّكتور "جوزيف بروير"، زميله الذي يكبره سنّا، والذي التقى به فرويد من قبل في مخبر "بروك". "بروير" الطّبيب المشغول بكثرة، والنّشط كثيرًا في

مجال العلوم، دون أن يكون هو نفسه مُبتكِرًا، كان قد أخبر فرويد، قبل رحلته إلى باريس، عن حالة هستيريا عند فتاة شابّة، تمكّن من علاجها بطريقة غير متوقّعة. عانت المريضة من الأعراض التّقليدية لهذا المرض: شلل، تشنّج، تثبيط، وتعتيم للوعي.

ما لاحظه "بروير" هو أنّ هذه الفتاة تشعر بالتّحرر، وأنّ تحسنًا مؤقتًا يحدث في حالتها كلّما سنحت لها فرصة التّحدث معه عن نفسها بإسهاب. استمع الطّبيب الحكيم بصبرٍ للمريضة وهي تُطلق العنان لخيالها العاطفي. وهكذا، حكت الشّابة، وقَصّت وحكت. لكن ومن خلال هذه "الاعترافات" المُفاجئة التي لا يوجد بينها رابط منطقي، شعر "بروير" أنّ المريضة تتجنّب دائمًا الأهمَّ عن قصد، كلّ ما لعبَ دورا حاسما في تطوّر الهستيريا لديها. وأدرك أنّ هذا الكيان يعرف شيئا عن ذاته لا يرغب في معرفته، وكنتيجة لذلك، يكبته. ولإفساح المسار المدفون الذي يقود إلى الحدث الخفي، خطرت لبروير فكرةُ تنويم الفتاة مغناطيسيا بانتظام.

في هذه الحالة التي تُثبَّط فيها الإرادة الحرّة، يأمل أن يستطيع التّخلص بشكل جذري من كلّ الموانع والكفّ الذي يظلّ متعارضًا مع التّوضيح النّهائي للحقائق. وبالفعل، نجحت محاولته؛ ففي حالة التّنويم المغناطيسي، حيث يتلاشى كلّ شعور بالخجل، تُعبّر الفتاة بكلّ حرّية عمّا كانت تخفيه بعنادٍ كبير عن الطّبيب، وقبل كل شيء عن

نفسها: كانت قد أحسّت بجوار سرير والدها المريض ببعض المشاعر وكبتتها. ووجدت هذه المشاعر المكبوتة لأسبابٍ تتعلّق بالحشمة، أو بالأحرى خلقت، كمُشْتَقّ، الأعراضَ المرضية المُلاحظَة عندها.

وفي كلّ مرّة تعترف فيها الفتاة بتلك المشاعر وهي تحت التّنويم المغناطيسي، يختفي بديلها العرضي على الفور، أي العرض الهستيري. ويواصل "بروير" المُعالجة بشكلٍ منهجي في هذا الاتّجاه. وبقدر ما يُعلِمُ المريضةَ على نفسها ويشرح لها حالتها، كانت الظّواهر الهستيرية الخطيرة تختفي – لأنّ وجودها أصبح غير ضروري. في غضون عدّة أشهر، سُرّحت المريضة بعد أن شُفيت تماما.

حدّث "بروير" زميله الشّاب عن هذه الحالة الغريبة باعتبارها مثيرةً بشكل استثنائي. أكثر ما أرضاه في هذا العلاج كان شفاء مريضةِ العُصَاب. لكن فرويد، ببديهيته العميقة وحدسه، خمّن على الفور وجود قانون أكبر تحت طريقة العلاج التي كشف عنها "بروير"، قانون مفاده أنّ "طاقات الرّوح قابلة للتّحريك"، وأنّه لا بدّ من تواجد قوّة فعّالة في اللاوعي (لم يتم اختراع هذه الكلمة في ذلك الوقت بعد) تُحوّلُ المشاعرَ التي توقّفت في مسارها الطّبيعي (أو، كما نقول منذ ذلك الحين، لم يتمّ "التّنفيس- Abreaktion " عنها) وتحملها نحو مظاهر نفسية أو جسدية أُخرى مختلفة. تُظهر الحالة التي اكتشفها بروير على نحو ما، وتحت منظور جديد التّجاربَ التي جُلِبَتْ

من باريس؛ وقرّر الصّديقان العمل سويّة ليقتفيا الأثرَ الذي اكتشفاه إلى غاية الظُّلمات.

تمثّل الأعمال التي كتبا حينها بالتّعاون: "حول الآلية النّفسية للظّواهر الهستيرية (١٨٩٣) " و"دراسات حول الهستيريا (١٨٩٥) " أوّل عرضٍ لهذه الأفكار الجديدة؛ يتألّق فيها فجرُ علمِ نفسٍ مختلف بالكامل عمّا كان متعارفًا عليه. وفي سياق أبحاثهما المشتركة، أُثبتَ لأوّل مرّة أنّ سبب الهستيريا ليس مرضًا عضويًا كما كان مُعتقدًا حتّى ذلك الحين، بل اضطرابٌ ناتج عن صراع داخلي يجهله حتّى المريض نفسه؛ وتحت الضّغط النّاتج عن الصّراع، تتولّد هذه الأعراض والانحرافات المرضية. الاضطراباتُ النّفسية وليدةُ احتباسِ للمشاعر، كما هي الحمّى نتاج التهابٍ داخلي. ومثلما تزول الحمّى في اللّحظة التي يجد فيها الخَرَاجُ منفذًا، تتلاشى مظاهر الهستيريا العنيفة بمجرد أن يُستنزَف الشّعور المكبوت، "الذي يجب أن يُوجَّه إلى القنوات الطّبيعية التي يمكن من خلالها أن تتأكّدَ القوّة الشّعورية المُحرَّفة ليتمّ تحريرها بعد ذلك، - المخنوقة، إن صحّ القول- والتي كانت تُحافِظُ على الأعراض".

في البداية، لجأ كلّ من "بروير" و"فرويد" إلى التّنويم المغناطيسي كأداة للتّحرير النّفسي. في تلك الفترة البدائية الما قبل تاريخية من التّحليل النفسي، لم يكن التّنويم يمثّل بأي حال من الأحوال علاجًا

بحدّ ذاته، بل فقط مجرّد وسيلة للمساعدة. مُهمّته المُساعدة في توقيف الأزمات الشّعورية: هو إن صحّ القول بمثابة التّخدير الذي يهيّئ للعملية الجراحية. فقط، عندما تسقط أغلال حالة اليقظة الواعية، يستطيع المريض التّعبير بحرية عن سرّه الدّفين، وفعلُ الاعترافِ لوحدِه يُنقص من الضّغط المُقلِق. يُوَفِّر مُتنفَّسٌ لروحٍ تختنق، وهذا التّحرير من التّوتر هو ما تشدو به المأساة الإغريقية على كونه سعادةً وخلاصًا؛ ولذلك، أطلق كلّ من "بروير" و"فرويد" في البدء اسم "الطّريقة التّطهيرية"، بمعنى "التّطهير أو Catharsis " كما وظّفه أرسطو. بفضل معرفة الذّات، يُصبح الانحراف المرضي والمصطنَع عديمَ الجدوى، وبذلك يختفي العرضُ الذي لم يكن له إلّا معنى رمزي.

توصّل "بروير" و"فرويد" سويّا إلى هذه النّتائج المهمّة والحاسمة. ولكن تنفصل طريقاهما هنا. بعد أن خشي "بروير" مخاطرَ هذا الغزو في عالم الرّوح، رجع إلى الجانب الطّبي؛ فما كان يهمّه خاصّة كانت الطّرق لعلاج الهستيريا، وتنحية الأعراض. أمّا فرويد، والذي كان قد اكتشف للتّو عالم النّفسِ بداخله، فهو بالأساس مفتون بالظّاهرة النّفسية، وبالغموض الذي يُنير عملية تحوّل المَشاعر. وأثارَ بعنف أكبر فضولَه اكتشافُ حقيقة أنّ هذه الأخيرة بإمكانها أن تُكبَت، وأن تُستبدَل بأعراض مرضية؛ إذ شعر بأنّ مربط الفرس لمشكل الآلية النّفسية يكمن هنا. لكن، بما أنّ المشاعر تُكبَتْ؟ فمن يكبتها؟ وأين

تُكْبَتْ؟ وتحت أيّ قوانين للقوى تتنقّل من الفضاء النّفسي إلى الفضاء الجسدي، وأين تحدث هذه التّحولات اللّامتناهية المُستمرة التي لا يعرف عنها الإنسان الواعي شيئًا، والّتي أيضًا يعرف عنها الكثير بمجرّد إجباره على معرفتها؟ يرتسم بشكل غامض أمام فرويد مجالٌ مجهول لم يتجرّأ العلم إلى غاية تلك اللحظة أبدًا التّوغّل فيه، ليرى من بعيدٍ الخطوط العريضة الغامضة لعالم جديد: اللّاوعي. ومنذ ذلك الحين، سيكرّس نفسه بكلّ شغف "لدراسة المنطقة اللّاواعية لحياة الرّوح". ويكون بذلك النّزول إلى الأعماق السّحيقة قد بدأ.

عَالم اللّاوعي

دائما، تتطلّب رغبة المرء في نسيان ما يعرف، والنّكوص المصطنَع من مستوى أعلى إلى آخر أكثر سذاجة، مجهودًا خاصًا- ولهذا يُعدّ من الصّعب الآن أن يتقمّص المرء طريقةَ التّفكير التي تعامل بها العالَمُ العِلمي سنة ١٩٠٠ مع مفهوم اللّاوعي. بالطّبع، لم يكن علم النّفس ما قبل الفرويدي غيرَ مُدركٍ أنّ إمكانياتنا النّفسية ليست مُستنفدةً تمامًا بالنّشاط الواعي للعقل، وأنّ قوّة أخرى تتواجد خلف ذلك، وتعمل مُتخفيّة في ظلّ حياتنا وتفكيرنا. لكن، بما أنّ العلم لم يعرف ما يصنع بمعلومةٍ كهاته، لم يُفكّر أبدًا في نقل فكرة اللّاوعي إلى ميدان العلم والتّجريب.

لا يهتمّ توجّه تلك الفترة بالظّواهر النّفسية إلّا عندما تدخل هذه الأخيرة في الدّائرة التي يُنيرها الوعي. بالنّسبة له، الأمر غير معقول – وهو تناقض بين الحُجج - contradictio in adjecto، أن يُصنعَ من اللّاوعي مَوضوعًا للوعي. لا يُعتبر الشّعورُ شعورًا إلا عند الإحساس به بكلٍّ وضوح، ولا الإرادةُ إرادةً إلّا عندما تريدُ بفعاليّة؛ لكن طالما لم ترتفع المظاهر النّفسية من فوق سطح الحياة الواعية،

فعلم النّفس آنذاك يُبعدها عن العقل باعتبارها عواملا غير قابلة للقياس، وبالتّالي لا يمكن أخذها بعين الاعتبار.

يحمل فرويد إلى التّحليل النّفسي المُصطلح التّقني "اللّاوعي"، العقل الباطن، لكنّه يمنحه معنى مختلفا تماما عن معناه في المدرسة الفلسفية. بالنّسبة لفرويد، لا يشكّل الوعيُ الفعلَ العقلي الوحيد، ولا يشكّل اللّاوعي كنتيجة لذلك فئةً مختلفة تمامًا، أو حتّى ثانوية، بل على العكس، يُؤكّد بحزم أنّ جميع الأفعال النّفسية هي في البدء نتاجُ اللّاوعي؛ وتلك التي نُدركها لا تُمثّل نوعًا مُختلفًا أو مُتفوّقًا؛ إذ لا تدين هذه الأخيرة دخولها في مجال الوعي إلّا لفعلٍ خارجي، مثل الضّوء الذي ينير شيئًا ما. تظلّ الطّاولةُ طاولةً سواءً كانت غير مرئية في غُرفةٍ مُظلمة، أو عندما ينيرها المصباح الكهربائي. يجعل الضّوء وُجودَها أكثر بروزا من النّاحية الحسّية، لكنّه لا يخلق وجودها.

طبعا، في هذه الحالة من الوضوح، يمكن تمييزها بشكلٍ أكثر دقة ممّا هو الحال عليه في الظّلام، رغم أنّه كان من الممكن حتّى في الظّلام وبطريقة أخرى، كالملمس والتّحسّس، وفي حدود معيّنة التّعرف على جوهر طبيعتها وحجمها. لكن، تنتمي منطقيًا الطّاولة غير المرئية المتواجدة في الظّلام إلى العالم الماديّ، تماما مثل الطّاولة المرئية، والشّيء نفسه صحيح في مجال علم النّفس، فاللّاوعي ينتمي إلى فضاء الرّوح تماما مثل انتماء الوعي له. لأوّل مرّة، لم يعد اللّاوعي

يعني عند فرويد "غير المعروف"، وباكتساب هذا المعنى الجديد، يدخل المصطلح إلى العِلم. بفضل إرادة فرويد المُذهلة في تفحّص ما يتجاوز مظهرَ الظّواهر النّفسية الخارجي، بل الأعماق أيضا، ورغبته في سبر ما يتواجد تحت سطح الوعي باهتمام جديد، وأداةٍ منهجية أُخرى -جرس الغوص لولوج علم نفس الأعماق- يُصبح بذلك من جديد علمُ النّفس التّقليدي معرفةً حقيقيّة بالرّوح، وعلمًا حيويًا تطبيقيا، بل وحتّى علاجيًا.

يدلّ اكتشاف مجال البحث الجديد هذا، والتّوسّع الهائل في قوى المجال النّفسي على عبقرية فرويد الحقيقية. فجأةً، يُضاعف المجال النّفسي المحسوس نطاقه السّابق، ويكشف للعلم، تحت السّطح، عالم الأعماق. من خلال هذا التّحول البسيط ظاهريا – وكلّ الأفكار الحاسمة تبدوا بعدها دائمًا بسيطةً، وشديدة الوضوح –تغيّرت جميع الأبعاد والمقاييس داخل الدّيناميكية النّفسية.

لذلك، فمن المحتمل أن يحتسب التّاريخ المُستقبلي العقلي هذه اللّحظة الإبداعية التي خلقت علم النّفس من بين أثرى اللّحظات بالنّتائج، مثلما كان تغيير زاوية الرّؤية الفكرية البسيط لـ"كانت" و"كوبرنيكوس" قد حوّل فِكرَ حِقبة زمنية بكاملها. فقط اليوم، تبدو لنا الصّورة التي وضعتها جامعات مطلع القرن عن الرّوح خرقاء جدًا، ضيّقة المجال، محدودة وخاطئة، مثل خريطةِ بطلمية تُطلِقُ تسميةَ

"الكوسموس" ، الكون على ما هو ليس في الحقيقة سوى جزء صغير وبائسٍ من الكون. ويرى علماء النّفس ما قبل الفرويديين- أشباه رسّامي الخرائط السّذج- ببساطةٍ قارّات الرّوح غير المكتشفة كأرضٍ مجهولة- terra incognita-، "اللاوعي" بالنّسبة لهم كلمةٌ تحلّ محل "المجهول"، أو "ما يستحيل الوصول إليه". صحيح أنّهم يظنّون أنّه لا بدّ من تواجدِ خزّان مَا للرّوح مظلم وراكد، والذي تتدفّق إليه كلّ ذكرياتنا غير المُستخدمة لتغرقَ فيه، متجرٌ يهيم فيه ما هو منسيّ وغير مستخدم دون هدف، مستودعٌ تجذب منه الذّاكرة، إن فعلت، من وقتٍ لآخر، أيَّ شيء كان إلى ضوءِ الوعي. لكنّ مفهوم العلم ما قبل الفرويدي الأساسي هو، ويظل: أنّ هذا العالم غير الواعي بذاته سلبيّ تمامًا، وخامل تمامًا؛ يمثّل حياةً سبق وأن عاشها المرء، حياة ميّتة، ماضٍ مدفون؛ وبهذا، فهو دون أدنى فاعليّة، ودون أيّ تأثير على مشاعرنا الرّاهنة.

يعارض فرويد هذا المفهوم بمفهومه الخاص: ليس اللّاوعي بأيّ حالٍ من الأحوال بقايا للرّوح، بل هو وعلى العكس تماما مادّتها الخام، والتي لا يبلغ منها السّطحَ إلّا جزء ضئيل جدّا ينيره الوعي. لكن لا يُعتبَر بذلك الجزء الأكبر، والمسمّى اللّاوعي، والذي لا يتجسّد ولا يظهر، ميّتا أو غير فعّال. في الحقيقة، هو يعمل على تفكيرنا وشعورنا، بل وقد يُمثّل الجزء الأكثر مرونة من وجودنا النّفسي.

ولهذا السّبب، يرتكبُ الذي لا يأخذ في الحسبان الإرادةَ اللّاواعية عند اتّخاذه قراراته خطأً فادحا، لأنّه يستثني من حسابه العنصرَ الأساس لتوتّراتنا الدّاخلية؛ مثلما نرتكب خطأً فادحا عند اعتبار أنّ قوّة جبلٍ جليدي تكمن فقط في الجزء الطّافي فوق السّطح (بما أنّ حجمه الحقيقي يظلّ مُتواريا تحت السّطح)، كذلك يكذب على نفسه ذاك الذي يظنّ أنّ طاقاتنا الواعية، وأفكارنا الواضحة تحدّد لوحدها أفعالنا ومشاعرنا. لا تطفو حياتنا بحُريّة في الفضاء العقلاني، بل تخضع للضّغط المُستمر للّاوعي؛ وتغرق كلّ لحظة من يومنا تحت أمواج الماضي الذي يبدو ظاهريّا منسيّا. لا ينتمي عالمُنا الأعلى إلى الإرادة الواعية أو إلى العقل المنطقي بالدّرجة التي نفترض فيها ذلك بفخر، فالحقيقة هي أنّ القرارات الأساسية تنبثق من اللّاوعي مثل البرق، وفي أعماق عالم الغرائز هذا، تتحضّر الهزّات التي تُغيّر مصائرنا فجأة وتقلبها.

وهناك في الأسفل، تقبع، مُتلاصقةً بجوار بعضها البعض، كلّ تلك العواطف التّي هي مصنّفة في مجال الوعي في فئاتٍ زمانية ومكانية؛ رغباتُ طفولةٍ مَنْسِية، نحسبها دُفنت إلى الأبد، تغلي هناك بفارغ الصّبر، وأحيانا، مستعرة ومُتضوّرة جوعًا تغزوا حياتنا، ويرفع الرّعب والفزع اللذين مُحِيا منذ مدّة طويلة من الذّاكرة الواعية فجأةً من اللاوعي صراخهما عن طريق الأعصاب، هنا، لم تتجذّر في كياننا

رغبات ماضينا الشّخصي فحسب، بل أيضا رغبات أسلافنا الهمجية، والأجيال الغابرة. من هذه الأعماق، تخرج أفعالنا الأكثر تميّزا، ومن هذا السّر الخفي عنّا، ينطلق التّنوير المفاجئ، والقوّة الطّاغية التي تُسيطر على قوّتنا. في هذا الشّفق، يسكن الأنا القديم البدائي، والذي يجهل عنه الأنا المُتحضّر كلّ شيء، أو فقط يريد تجاهله؛ لكنّه فجأة ينهض، يرتفع ويخترق الطّبقة الرّفيعة من التّحضر التي كانت تحتجزه، لتندفع غرائزه البدائية وغير القابلة للتّرويض فينا، مُهدِّدَةً، ذلك أنّ إرادة اللّاوعي الجوهرية هي أن يصعد إلى النّور، وأن يصبح واعيا وأن يتحرّر عن طريق الفِعل: "بما أنّني موجود، فيتوجّب عليّ القيام بفعل".

في كلّ لحظة، كلّ مرّة ننطق فيها بكلمة، نقوم فيها بفعل، أيّا كان هذا الفعل، نحن مجبرون على قمع أو بالأحرى كبح حركات لاواعية، يتعيّن على إحساسنا الأخلاقي أو الحضاري أن يدافع عن نفسه باستمرار ضدّ شهوة الغرائز الهمجية. وهكذا – وهذه رؤية عظيمة للعناصر يستحضرها فرويد لأوّل مرة – تظهر حياتنا النّفسية بأكملها كصراع دائمٍ ومثيرٍ للشّفقة، بين الإرادة الواعية واللّاواعية، بين الفعل المسؤول وغرائزنا غير المسؤولة. لا نتعلّم كيفية التّعرف على عالم أحاسيس إنسان إلّا عندما نتمكّن من إضاءة عالمه السّفلي: لا يُمكننا اكتشاف أسباب اضطراباته ومشاكله إلّا عندما ننزل إلى أعماق الرّوح. لا

يحتاج الإنسان لا للأخصّائي النّفسي ولا لطّبيب الأمراض العقلية ليُعلّمَانِه ما يُدرِكه بالفعل في قرارة نفسه. يمكن للطّبيب أن يساعد فعليا فقط في الحالة التي يجهل فيها الإنسان لا وعيه تماما.

لكن كيفَ النُّزول إلى مملكة الشّفق هذه؟ يجهل العلم المعاصر الطّريقة. وإضافة إلى ذلك، هو يعترف صراحةً باستحالة فهم ظواهر اللّاوعي باستخدام أجهزته المبنيّة على مبادئ الميكانيكا في عالم حسّي بحت. لم يكن علم النّفس القديم قادرًا إذن على إتمام بحوثه إلّا في ضوء النّهار، في عالم الوعي. كما كان يمرّ بلا مبالاة، ودون أن يلقي نظرةً أمام رجل أبكم، أو ذاك الذي يتحدّث في أحلامه. يرفض فرويد هذا المفهوم، ويكسره مثل قطعة خشب فاسدة. حسب قناعته الشّخصية، اللّاوعي ليس صامتًا. فهو يتحدّث عن طريق رموز واشارات مختلفة عن الوعي.

وعلى ذاك الذي يريد أن يغادر السّطح لينزل إلى هاوية نفسه أوّلا وقبل كلّ شيء أن يتعلّم لغة هذا العالم الجديد. مثل علماء المِصريات على طاولة سوداء في مدينة الرّشيد، شرع فرويد في تفسير الإشارة تلو الأخرى، ثمّ وضع أسسا معجمية للمفردات، وقواعد نحوية للغة اللّاوعي، ليفهم تلك الأصوات التي تهتزّ إغراءً أو تحذيرا، خلف أقوالنا وحالة يقظتنا، والتي على العموم نرضخ لها ونطيعها بسهولة أكبر من إرادتنا الصّاخبة. من يفهم لغةً جديدة يدرك معنى جديدًا.

وهكذا، اكتشف فرويد بمنهجيته الجديدة في علم نفس الأعماق عالمًا نفسيا مجهولا: بفضله وحده، يصبح علم النّفس العلمي، والّذي لم يكن سوى المُلاحظة النّظرية لظواهر الوعي، ما كان ينبغي أن يكون عليه منذ البداية: علم دراسة الرّوح. لم يبق نصف كرة الكون الدّاخلي مهمَلاً خلف ظلّ العِلم القمري. وإلى الحدّ الذي تُضاء وتُتحدّد فيه الخُطوط العريضة الأولى للّاوعي، وتصبح أكثر دقة، ينكشف بطريقة تزداد وضوحا منظورٌ جديدٌ على البنية العظيمة والغنيّة بالمعنى لعالمنا النّفسي.

«كيف، لغاية الآن، لم يفكّر البشر إلا بهذا القدر الضّئيل في حوادث النّوم التي تُظهر في الإنسان حياةً مُزدوجة؟ ألا يوجد في هذه الظّاهرة علمٌ جديد؟ ... هو يعلن على الأقل التّفكك المُتكرّر بين طبيعتَيْنا. أنا أملك أخيرًا دليلا يُثبت التّفوقَ الذي يميّزُ حواسَّنا الكامنة على حواسنا الظّاهرة»

بلزاك، لويس لامبرت، ١٨٣٣

تفسير الأحلام

اللّاوعي هو أعمق سرّ لدى كل إنسان: والمهمة التي وضعها التّحليل النّفسي على عاتقه هي مساعدته على كشف النّقاب عنه. لكن كيف يمكن لأيّ سرٍّ كان أن يُكشَف؟ بثلاث طرق. يُمكن أن ننتزع من الرّجل ما يخفيه بالقوّة: فالقرون السّالفة لم تثبت عبثًا كيف يمكن فتح الشّفاه المغلقة بعنادٍ بفضل التّعذيب. وبالإمكان تخمين شيء خفي من خلال دمج المعطيات إذا ما انتهزنا تلك اللّحظة الومضة، والوهلات الهاربة التي يُظهِر فيها حدوده في الظّلام -مثل ظهر الدّلفين البارز فوق سطح البحر الذي لا يمكن رؤية الأعماق من خلاله -. أخيرًا، وبكثير من الصّبر، يمكن ترقّب اللّحظة التي يخون السّر فيها نفسه في توقيتٍ تضعف فيه اليقظة.

يُمارس التّحليل النّفسي هذه الأساليب الثّلاثة بالتّناوب. في البدء، حاول أن يجعل اللّاوعي يتكلّم مُجبرًا، عبر إخضاعه بواسطة التّنويم المغناطيسي. لم يكن علم النّفس يجهل أنّ الإنسان يعرف عن نفسه أكثر ممّ يعترف به لذاته أو للآخرين، لكنّه كان يجهل الطّريقة التي يقترب بها من العقل الباطن. وقد أثبت التّنويم المغناطيسي إمكانية

استخراج المعلومات في تلك الحالة أكثر من حالة اليقظة. بما أنّ الشّخص الذي خُدِّرت إرادته يجهل أنّه يتحدّث أمام الآخرين، ظانًا نفسه مُنفردًا في ذلك الحيّز من النّسيان، فهو يشارك بإسهابٍ رغباته وأسراره الأكثر حميمية.

لذلك، بدا التّويم المغناطيسي أوّل الأمر وسيلةً واعدة؛ لكن (ولأسباب سيستغرق شرحها بالتّفصيل وقتًا طويلاً) سرعان ما يتخلّى فرويد عن وسيلة اقتحام اللّاوعي العنيف هذه، باعتبارها غير أخلاقية، وعقيمةً لا نتيجة لها. وتمامًا مثلما تخلّت العدالة طواعية في مرحلة أكثرَ إنسانيةً عن التّعذيب لتستبدله بفنّ الاستجواب الأكثر دقّة، والقرائن والأدلة الظرفية، انتقل التّحليل النّفسي من المرحلة الأولى التي ينتزع فيها الاعترافَ بالقوّة إلى المرحلة التي يخمّن فيها من خلال دمج المعطيات. يترك كلّ حيوان، مهما كان هذا الحيوان ضئيل الحجم، خفيفًا ورشيقا آثارًا على طول طريقه. وتماما مثلما يجد الصّياد في أصغر الآثار نوع الفريسة، ومثلما يحدّد عالم الآثار على شظايا الآنية الفخارية طبيعةَ جيلٍ لمدينة رُدِمت بالكامل، فالمحلّل النفسي، خلال مرحلته المتقدّمة، يمارس كالتّحري فنّه من خلال مقاربته لحقائقَ تبدوا دون معنى وغير مهمّة، والتي في الحقيقة تخون الحياة اللاواعية نفسها فيها من خلال الوعي. ومنذ أوّل أبحاثه في هذا الاتّجاه يكتشف فرويد مسارا مُفاجئًا: إنّها السّقطات (الهفوات).

ما يعنيه التّحليل النّفسي السّحيق بتسمية السّقطات (وفرويد يجد دائما لكلّ معرفة جديدة الكلمة المناسبة التي تضرب في الصّميم) هي كلّ الظّواهر المتفرّدة التي تبدوا للوهلة الأولى متناهية الصّغر: الخطأ في التّعبير، خلطٌ بين الأشياء، زلّة اللّسان، كلّ ما يحدث لأيّ واحد منّا عشر مرّات في اليوم. لكن من أين تأتي هذه الأخطاء الملعونة؟ ما هو سبب ثورة المادّة ضدّ إرادتنا؟ يجيب علم النّفس القديم ببساطة: إنّها الصُّدفة، أو التّعب، هذا لو رأى أنّ هذه الأخطاء التّافهة في الحياة اليومية جديرة باهتمامه.

سيقول مجدّدا: الإهمال، التّشويش، الإلهاء، الغفلة. لكنّ نظرة فرويد أكثر حدّة وتذهب أبعد من ذلك: ما هو التّشويش إن لم يكن حقيقةُ عدم وجودِ أفكار المرء في المكان الذي يُريدها أن تكون فيه؟ وإذا لم يُنفّذ المرءُ الفعلَ المطلوب، فكيف يحدث أن يحلّ آخر، لا إرادي تمامًا، محلّه؟ لماذا نقول كلمة مختلفة عن تلك التي قصدناها؟ وبما أنّه وفي السّقطات، يتمّ فعلٌ بدل الفعلِ المقصود، لا بدّ وأنّ أحدهم قد تسلّل بشكل غير متوقّع لتأديته. لا بدّ وأنّ أحدهم مسؤول عن النّطق بزلّة اللّسان بدل الكلمة الصّحيحة، يخفي الشّيءَ الذي نودّ إيجاده، وهو نفسه الذي يضع بمكر في اليد الشّيءَ الخطأ، بدل ذلك الذي كنّا نبحث عنه بوعي. لا يعترف فرويد أبدًا في المجال النّفسي (وتهيمن هذه الفكرة على منهجيّته بأكملها) بأنّ مردّ الشّيء يرجع إلى

مجرّد الصّدفة، أو لا معنى له على الاطلاق. بالنّسبة له، لكلّ حدث نفسي معنى محدّد، ولكلّ فعل فاعله، وبما أنّ الوعي لا يعمل في هذه السّقطات، بل يجد نفسه مُستبدلًا بعد أن تمّ قمعه، فما الذي يمكن أن تكون هذه القوّة التي تقمعه إن لم يكن اللاوعي، والذي بُحِث عنه منذ زمن طويل دون جدوى؟ لا تعني إذن السّقطات عند فرويد التّشويش وغياب الفكر، بل على العكس انتصارًا لفكرةٍ مكبوتة. بهذه الزّلة يعبّر "شيءٌ ما" أرادت إرادتنا الواعية أن تُلزمه الصّمت. و"هذا الشّيء" يتكلّم اللّغة المجهولة التي يتوجّب أوّلا تعلّمها، لغة اللاوعي.

وهكذا، اتّضح مبدأً أساسي: أوّلا، كلّ سقطة، كلّ فعل ناتج ظاهريا عن خطأ يعبّر عن إرادة خفيّة. ثانيًا، يجب أن تتواجد في حيّز الوعي مقاومة فعّالة ضدّ التّعبير عن هذا اللّاوعي. لو، على سبيل المثال (وأختارُ هنا أحدَ أمثلة فرويد نفسه)، يقول أستاذٌ في مؤتمر عن عمل زميلٍ له: "لا يسعنا التّقليل من هذا الاكتشاف بشكل كافٍ"، فنيّته الواعية كانت دون أدنى شك أن يقول: "لا يسعنا تقدير هذا الاكتشاف بشكل كافٍ". تخون السّقطة موقفه الحقيقي، وتكشف عن رغبته السّرية في رؤية تقليل قيمة إنجازات زميله بدل من أن تُقدّر. نقول عندما نخطئ ما لم نكن نرغب في قوله، لكن ما في الحقيقة فكّرنا فيه. وننسى ما أردنا داخليا نسيانه. السّقطة تقريبا في كلّ الحالات اعترافٌ وخيانةُ ذاتٍ.

هذا الاكتشاف النّفسي لفرويد، والذي يعتبر غير ذي أهميّة مقارنة كتشافاته الأساسية، هو الأكثر قبولاً واعتمادًا بشكل عام، لأنّه الأكثر ملية، ولأنّه يصدم بشكلٍ أقلّ: وبالنّسبة لنظريته، فهو مجرّد فترة نتقالية. إذ أنّ هذه السّقطات نادرة الحدوث نسبيا، ولا تزوّدنا إلّا بأجزاء متناهية الصّغر من اللاوعي، عددها قليل جدّا ومتناثرة جدًا في الزّمن لتسمح لنا بتكوين فسيفساء شاملة الأهمّية. لكن وانطلاقا من هنا، بطبيعة الحال، يذهب فُضول فرويد الملاحِظ إلى أبعد، ويفحص كامل سطح حياتنا النّفسية، ليجد ويُفسّر في هذا الاتّجاه ظواهر "سخيفة" أخرى. ولن يبحث مطوّلا؛ إذ سرعان ما يجد نفسه أمام أحد التّجليات الأكثر شيوعا لحياتنا النّفسية والتي تُنعَت أيضا بالسّخيفة، بل وبنموذج السّخف واللّا معنى: ألا وهو الحلم.

جرت العادة أن نعتبر الحلم، زائر نومنا اليومي هذا، دخيلًا غريبًا، متشرّدًا مُتقلّبًا على المسار الذي في هو العادة طريقٌ منطقية وواضحة للعقل. يقال: "الأحلامُ زَبَدٌ- Träume sind Schäume -" ما يعني أنّ كلّ حلم كذب؛ ليس للحلم معنى ولا هدف؛ إنّه سرابُ الدّم، فقّاعة صابون، وصوره لا معنى لها. لا "حاجة لنا" بهذه الأحلام، ولسنا مسؤولين عن هذه الألعاب السّاذجة العفريتية التي يلعبها خيالنا، يُصرّح علم النّفس القديم؛ رافضا كلّ تفسير عقلاني: أنْ يسترسل المرء في مناقشةٍ جادّة مع هذا الكاذب، وهذا المهرّج الذي

هو الحلم، فلا معنى للأمر ولا فائدة، من وجهة نظرٍ علمية.

لكن، من هو الذي يتكلّم، من يتصرّف في أحلامنا، من يرسمها، من يُشكّلها وينحتها؟ اشتبهت عصور ما قبل التّاريخ بالفعل في أنّ شخصًا آخر يتحدّث ويتصرّف ويرغب، شخصٌ مختلف عن "الأنا" في حالة اليقظة. كانت تقول أنّ الأحلام تلك "مُلهَمَة" و"مستوحاة" من شيء قاهر، أُدخِلت فينا عنوةً من طرف قوّة خارقة. كانت إرادةً قادمة من خارج الأرض، أو إن تجرّأنا على استخدام الكلمة: تجلّي شيءٍ ما ورائي. لكن لم يكن العالم الأسطوري يعرف بالنّسبة لأيّ إرادة خارجية عن الإنسان سوى تفسير واحد: الآلهة.

إذ، من سواها يملك القدرة على إحداث التّحولات، ويمتلك القدرة الأسمى؟ غير المرئية في العادة، هي التي كانت تقترب من البشر في الأحلام الرّمزية، لتهمس لهم برسالة، تملأ أرواحهم خوفا أو أملا، أو، راسمةً صورا برّاقة على جدار النّوم الأسود، تحمي أو تُحذّر. ظنّا منها أنّها تسمع في هذه التّجليات اللّيلية صوتا مقدّسا، صوتا إلاهيا، بذلت الشّعوب البدائية قصارى جهدها لتترجم هذه اللغة الإلهية إلى لغة بشرية، "الحلم"، لترى فيه إرادة الآلهة. وهكذا، ومع بداية الإنسانية، كان أحد أولى العلوم هو تفسير الأحلام: عشيّة المعارك، قبل اتّخاذ أيّ قرار، بعد ليلةٍ عبرت الأحلامُ من خلالها، يفحص ويُفسِّر الكهنة والحُكماء صورَها على أنّها رموزٌ لخطر مُهدِّد، أو لفرحٍ قريب. إذ

أنّ فنّ تفسير الأحلام القديم، وكنقيضٍ للتّحليل النّفسي الذي يُريد كشف ماضي الرّجل من خلال الأحلام، يَظُنُّ أنّ الآلهة تنبئ البشر بالمستقبل. ازدهر هذا العلم الرّوحاني، طيلة آلاف السّنين في معابد الفراعنة وحصون المدن اليونانية ومعابد روما وتحت سماء فلسطين الملتهبة. كان الحلم لمئات وآلاف الشّعوب ترجمان القدر الحقيقي.

يتعارض العلم التّجريبي الجديد، بطبيعة الحال، تمامًا مع هذا المفهوم الذي يعتبرُه خرافيًا وساذجًا. مُنكرًا الآلهة ومعترفًا بالكاد بالألوهية، هو لا يرى في الأحلام أيّ رسالة، ولا يجد فيها علاوة على ذلك أيّ معنى. الحلم بالنّسبة له فوضى، شيء لا قيمة له، لأنّه خالٍ من المعنى، مجرّد فعلٍ فيزيولوجي نقيّ وبسيط، اهتزازٌ مُتأخّر، بطيء وغير متناسقٍ للجهاز العصبي، غليانُ الدّم المتدّفق إلى المخ، بقايا انطباعات لم تُهضَم خلال النّهار تخرجها موجة النّوم الأسود. يفتقر هذا المزيج غير المتّسق بطبيعة الحال إلى أي معنى منطقي أو نفسي. ولهذا السّبب لا يعترف العلم بأنّ لتصوّرات الأحلام هدف أو حقيقة، ولا قانون ولا معنى، وعلم النّفس لا يسعى ليشرح ما هو عبثي، أو ليفسّر أهمّية ما لا أهميّة له.

فقط مع فرويد بعد ألفي أو ثلاثة آلاف عام - يبدأ مرّة أخرى التّقييم الإيجابي للحلم، باعتباره كشفًا عن القَدَر. لكن، في المكان الذي لم ير فيه الآخرون غير الفوضى والتّناقض، تعرّف علمُ نفسٍ

الأعماق على التّسلسل والقاعدة المُنظَّمة؛ وما كان يبدو لسابقيه متاهةً مشوّشة لا مخرج منها، بدا له أنّه الطّريق الملكيّ -Via Regia- الّذي يربط الحياة اللّاواعية بالوعي. الحلم هو الوسيط بين عالم عواطفنا الكامن وذاك العالم الخاضع للعقل: فبفضله يمكننا معرفة الكثير من الأشياء التي نرفض معرفتها في حالة اليقظة. كما يقول فرويد، لا يوجد حلم عبثي لا معنى له؛ فلكلّ حلم باعتباره فعلا نفسيا كاملا، معنى مُحدّد. كلّ حلم تجلٍّ، ليس لإرادة سامية، إلهية، خارقة للعادة، بل غالبا لأعمق رغبةٍ عند الإنسان وأكثرها سريّة.

بالطّبع، لا يتكلم هذا الرّسول -الوسيط لغتنا العادية، لغة السّطح، بل لغة الأعماق السّحيقة ذات الطّبيعة اللّاواعية. ولهذا فلا نفهم على الفور معناه ورسالته؛ ويتوجّب علينا أوّلا تعلّم كيفية تفسيرهما. على علمٍ جديد يتعيّنُ علينا ابتكارُه تعليمَنا كيفيّة إدراك، واستوعاب وإعادة تركيب ما يمرّ بسرعة التّصوير السّينمائي على جدار النّوم الأسود في لغة مفهومة. لأنّه، وعلى شاكلة جميع لغات الإنسانية البدائية، لغات المصريين والكلدان والمكسيكيين، لا يُعبِّر عن لغة الأحلام سوى بالصّور، ويتعيّن علينا في كلّ مرّة ترجمة تلك الرّموز إلى مفاهيم.

تُباشر الطّريقة الفرويدية تحويل لغة الأحلام هذه إلى لغة فكرية بهدفٍ جديد، وشخصيّ مميز. لو أنّ التّفسير القديم أراد سبر المستقبل، فالتّفسير النّفسي يسعى إلى كشف الماضي النّفسي-

البيولوجي، وبذلك اكتشاف الحاضر الأكثر حميمية عند الإنسان. لأن "الأنا" الذي نحن عليه في الحلم ليس بالمظهر نفسه في حالة اليقظة؛ ونظرًا لانعدام مفهوم الوقت في الحلم (إذ أنّ مقولة "سريع كالحلم" ليست نتاج الصّدفة)، فنحن، أثناء الحلم في الآن ذاته ما كُنّا عليه سابقا وما نحن عليه الآن، الطّفل والمراهق، إنسان الأمس وانسان اليوم، "الأنا" الأشمل، وذلك ليس مجموع حياتنا فحسب، بل مجموع كلّ ما عشناه، بينما وفي حالة اليقظة، لا نُدرك غير الأنا اللّحظي. كلّ حياة إذن مزدوجة.

في الأسفل هناك، في اللّاوعي، نحن في شموليّتنا السّابق والحاضر، الإنسان البدائي والمُتحضّر، خلطٌ مربكٌ من الأحاسيس، بقايا بدائية لـ"أنا" أوسع وأكبر، مرتبط بالطّبيعة- وفي الأعلى، تحت الضّوء السّاطع القاطع، لا شيء غير "الأنا" الواعي الموجود في الوقت. تتواصل هذه الحياة الشّمولية الباهتة مع وجودنا الزّمني تقريبا بشكل حصري أثناء الليل، عن طريق رسول الغياهب الغامض هذا: الحلم؛ والشّيء الذي نخمّنه عن أنفسنا، الشّيء الأكثر أهميّة، نحن نعرفه من خلاله. لذلك فإن الاستماع إليه، وفهم رسالته يعادل معرفتنا لجوهرنا الحميم. من يدرك إرادتَه الخاصّة ليس فقط في الحياة الواعية، بل أيضا في أعماق الأحلام، يعرف بالفعل مجموع هذه الحياة التي يعيشها والحياة الزّمنية التي نطلق عليها تسمية "الشّخصية".

ولكن، كيف لنا أن نرمي بالمرساة في أعماقٍ يستحيلُ اختراقها، ويتعذّر قياسها؟ كيف نعرف، بطريقة دقيقة ما لا يظهر، ولا يتكلّم إلاّ عن طريق الرّموز؟ كيف يمكن لهذا النّور الذي يتأرجح في متاهات نومنا أن يضيء دروبنا؟ يبدو أنّ العثور على مفتاح، واكتشاف الرّقم الذي سيفكّ اللّغز ويترجم صور الأحلام المبهمة إلى لغة الوعي، يشترط قوّة ساحرٍ، وتقريبًا حدسَ مُستبصرٍ. لكن يمتلك فرويد في ورشته النّفسية فاتح أقفال يفتح له كل الأبواب، وهو يستخدم طريقةً لا تخطئ: كلّما أراد تحقيقَ الشّيء الأكثر تعقيدًا، انطلق من الشّيء الأكثر بساطة. يضع النّموذج الأصلي بجوار الشّكل النّهائي، دائما وأبدا، ومن أجل فهم الزّهرة، يرجع أوّلا إلى الجذور.

ولهذا، ينطلق فرويد في دراسته لسيكولوجية الأحلام من الطّفل، بدل الانطلاق من البالغ الواعي المثقّف. وبما أنّ الخيال لم يخزّن بعد في الوعي الطّفولي إلا القليلَ من الأشياء، فحاقة التّفكير لا تزال ضيّقة، والرّبط الموجود ضعيف، توجد إذن مادّة خام للأحلام يسهل الوصول إليها. لا يتطلّب حلم الطّفولة إلّا الحدّ الأدنى من فنّ التّفسير، لرؤية أساس هذه الطّبقة الرّقيقة من التّفكير. مرّ الطّفل أمام متجر بيع الشّوكولاتة، ورفض والداه أن يشتريا له أيّ شيء، فيحلم بالشّوكولاتة. بكلّ طبيعيّة، يتحوّل الاشتهاء في دماغ الطّفل إلى صورة، وتتحوّل الرّغبة إلى حلم. لا يزال كلّ من ضبطِ النّفس، والحياء،

والتّثبيط الفكري أو الأخلاقي، غائبين. وبنفس الحيادية التي يكشف بها ببراعة لكلّ من هبّ ودبّ مظهرَه، جسدَه، العاري والذي لا يعرف الحشمة، يكشف الطّفل في حلمه رغباته السرّية الحميمة.

وهكذا يصبح التّفسير المستقبلي جاهزا نوعا ما. تُخفي إذن صور الحلم الرّمزية، في مُعظمها، رغبات مكبوتة أو غير مُحقّقة، والتي، نظرًا لعدم قدرتها على التّحقّق خلال النهار، تسعى إلى دخول حياتنا بسلوك طريق الأحلام. ما لم يستطع التّحولَ أثناء النّهار إلى فعل أو كلمة لسبب أو لآخر، يُعبِّر عن ذاته في خيالات متعدّدة الأطياف والألوان، عارية وغير مبالية، على شكل تطلّعات ورغبات الأنا الدّاخلي يمكنها أن تمرح كما يحلو لها في تيّار الحلم الحرّ الطّليق.

ما لا يمكن تأكيده في الحياة الواقعية - أحلك الرّغبات، الشّغف المتأجّج الخارج عن العرف والأخطر- يمتدّ وينكشف هناك على ما يبدو دون عوائق (لكن سيصحّح فرويد هذا الخطأ سريعا)؛ في هذا القفص الذي يستحيل الوصول إليه؛ يمكن للرّوح المحبوسة طوال اليوم أن تتخلّص أخيرًا من جميع ميولاتها العُدوانية والجنسية؛ في الحلم يمكن للرّجل أن يحتضن ويغتصب المرأة التي ترفضه وتمتنع عنه في يقظته، ويستحوذ المُتسوّل على الثّروة، ويتزيّن القبيح بقناع الجمال، ويصبح العجوز يافعا من جديد، كما يصبح الضّعيف قويّا. هناك فقط، يمكن للإنسان أن يقتل أعداءه ويستعبد رُؤساءه،

أن يعيش بحماسٍ ونشوةٍ عنيفة، وبحرّية مثالية لا حدود لها رغبتَه العميقة الحميمة. كلّ حلم إذن لا يعني إلّا رغبة مكبوتة أثناء النّهار، أو أخفاها المرء على نفسه: هذا ما تبدو عليه الصّيغة الأوّلية.

توقّف عامّة النّاس عند هذه الملاحظة المؤقّتة الأوّلية لفرويد، إذ أنّ الصّيغة القائلة بأنّ الحلم يتوافق مع رغبةٍ لم تتحقّق، هي صيغة مريحةً ومناسبة للغاية، لدرجة تسمح حتّى للعب الكجّة بها. في الواقع، عند بعض الطّبقات من المجتمع، يظنّ البعض جدّيا أنّهم يمارسون تحليل الأحلام عندما يتسلّون بالتّحقيق في كلّ حلم من أجل رمزيّة الرّغبة فيه، وربّما رمزيّته الجنسية. في الواقع، لم ينظر أحد بقدرِ الاحترام الذي نظر به فرويد إلى النّسيج المعقّد لشبكة الأحلام، ولم يحتف أحد مثله بالفنّ الرّوحي الغامض لرسوماته وأنماطه المُتشابكة. مع عدم وثوقه المعهود في النّتائج المتسرّعة، لم يستغرقه الأمرُ وقتًا طويلاً ليدرك أنّ هذه العلاقة المباشرة التي من السّهل جدّا التّعرف عليها، لا تتعلّق إلّا بحلم الطّفل غير بالغ التّعقيد.

فعند البالغ، يستخدم الخيال الخلّاق مادّة رمزية هائلة من الذّكريات والرّبط؛ مفردات الصّور اللغوية في عقل الطّفل الذي يفهم على الأكثر بضع المئات من التّمثيلات الواضحة، تحيك هنا في أنسجةٍ مُحيِّرة، بسرعة ومهارة لا يُصدَّقان، ملايين، وربّما ملايير الأحداث المعاشة. انتهى، في حلم البالغ، عهد عري الرّوح الطّفولي الذي

يجهل الحشمة، والذي يُظهِر رغباته دون عوائق؛ انتهى عهد الثّرثرة اللامبالية للألعاب الليلية الأولى، لم يعد فقط حلم البالغ أكثر تمايزا وأكثر دقّة من حلم الطّفل، بل إضافة إلى ذلك منافقًا، مخادعا، وكاذبا: لقد أصبح شبه أخلاقي.

حتّى في عالم الخيال الخفي هذا، فقد آدم الأبدي فردوس الإبداع، وأصبح يعرف كلّا من الخير والشر حتّى في أعمق مكانٍ في حلمه. وحتّى خلال نومه، بابُ الوعي الأخلاقي والاجتماعي لا يُغلَق تماما؛ وبعينين مُغمضتين، وحوّاسٍ طافية، تخشى الرّوح أن يُقبَض عليها في الجرم المشهود أثناء الحلم، برغبات غير لائقة، من طرف هذه "الرّقابة" الدّاخلية، الوعي-"الأنا الأعلى" كما يسمّيه فرويد. لا يجلب إذن الحلم الرّسائل من اللاوعي بحريّة وصراحة، بل يُهرِّبها، عبر طرق سريّة، متنكّرةً في الأشكال الأكثر تفرّدا.

تريد عاطفةً في حلم البالغ أن تعبّر عن ذاتها، لكنّها لا تجرؤ على فعل ذلك بحريّة؛ خوفا من الرّقابة، لا تتحدّث إلّا عن طريق تحريفات وتشوّهات متعمّدة وشديدة الأناقة، وتُقدّم بعض السّخافات غير المعقولة كي لا يُخمَّن معناها الحقيقي: الحلم مثل الشّاعر، كاذبٌ صادق، يعترف في السّر، "sub rosa"، يكشف، من خلال رموز فقط، حدثا داخليا.

ولهذا، فمن الضّروري التّمييز بعناية بين طبقتيْن: ما "اختلقه"

الحلم بهدف حَجْبه- ما يُسمّى بعمل الحلم- وما يختفي فعلا تحت هذا الحجاب المبهم، بمعنى "مضمون الحلم". مهمّة التّحليل النّفسي هي تصفية شبكة التّحريفات المُربِكة، واخراج الحقيقة، الاعتراف، وبذلك نواة الحدث وجوهر الحقيقة من هذهِ الرّواية المفتاحية-إذ كُلّ عِلْمٍ هو "خيالٌ وحقيقة"-. ليس ما يُدخِلُنا في لا وعي الحياة النّفسية هو ما قاله الحلم، بل ما أراد قوله. وهذا وحده العمقُ الذي يسعى علم نفس الأعماق إلى بلوغه.

لو أنّ فرويد يولي أهميّة خاصّة لتحليل الأحلام بغرض دراسة الشّخصية، فهو وبأيّ حال من الأحوال لا يدافع عن تفسيرٍ مبهم للأحلام. بل يشترط منهجية بحث صحيحة علميا، مماثلة لتلك التي يطبّقها النّاقد الأدبي على هيكلٍ شعري. مثلما يحاول هذا الأخير فصل الإضافات الخيالية عن جوهر التّجربة، متسائلا عن الذي دفع بالشّاعر لاختلاق الحقائق، يبحث المحلّل النّفسي فيما اختلقه الدّافع العاطفي عند مريضه. بالنّسبة لفرويد، تبرز صورة الشّخص بوضوح أكبر من خلال أحلامه، وهنا، كما عهد أن يفعل في جميع المجالات، يتوغّل معمّقا في عواطف الإنسان عندما يكون في حالة إبداع.

بما أنّ هدف التّحليل النّفسي الأساس هو معرفة الشّخصية، فهو يستعمل المادّة الخلّاقة عند الانسان، ومواد الأحلام الخام، يغربلها من خلال تحليله؛ يرى ما إذا كان الإنسان يتفادى المُبالغة، أو يقاوم

إغراءَ أن يختلق معنى هو شخصيا، بإمكانه، في العديد من الحالات أن يجد نقاط دعم مهمّة لتحديد الوضع الدّاخلي للشّخصية. لا مجال للشّك في أنّ علمَ الأنثروبولوجيا يدين لفرويد بمُحفّزٍ قيّم بفضل اكتشافه المُثمر هذا للرّموز النّفسية لأحلام معيّنة؛ لكنّه تجاوز هذا المجال في سياق بحثه ليُحقّق إنجازًا أهمّ: فقد فسّر لأوّل مرّة المعنى البيولوجي لظاهرة الحلم باعتباره ضرورة نفسية.

أثبت العلم منذ مدّة مغزى النّوم في تنظيم الطّبيعة: تجديد القوى التي استُنفذت بسبب أفعال النّهار، تعويض المادّة العصبية المُستخدَمة والمحترقة، مقاطعة عمل الدّماغ الواعي والمُتعِب باستراحة فراغ. على أصحّ طريقة مثالية للنّوم أن تكون عبارة عن فراغٍ أسود، شيء شبيه بالموت، توقّف لكلّ نشاط ذهني، عدم الرّؤية، عدم المعرفة، عدم التّفكير: لماذا لم تمنح الطّبيعة إذن هذا النّوع من الرّاحة الذي يبدو الأكثر نجاعة ظاهريا؟ ولماذا استحضرت، هي الحكيمة دائما في كلّ شيء، صُورًا مزعجةً ذات معنى على جدار النّوم الأسود، لماذا تُقاطع كلّ ليلة الفراغ الكلّي، هذا الغرق في النّيرفانا بتجلّياته الطّافية المضلّلة؟ لم وُجِدت الأحلام؟ هل لتعترض وتمنع، لتُربك وتزعج، أليست بهذا في الحقيقة تُعيق هذا الاسترخاء المُتصوَّر بحكمة؟ أليست هذه الظّواهر التي قد تبدوا بلا معنى في الحقيقة تناقضا مع الطّبيعة التّي تكون دائما هادفةً ومُخطّطة على نطاق أوسع؟

هذا السّؤال طبيعيٌّ للغاية، لكنّ عِلْمَ الحياة لم يكن يملك الإجابة عليه إلى غاية ذلك الحين. يُثبت فرويد لأوّل مرّة ضرورة الأحلام لتثبيت توازننا النّفسي. الحُلم بمثابة صمّام لعواطفنا. لأنّ عطشنا اللّامحدود للحياة، وللمتعة، رغباتنا اللّامتناهية، كلّها أشياء تجد نفسها محصورة في حيّز ضيّق داخل جسدنا الدّنيوي. من بين عددٍ لا يُحصى من الرّغبات التي تطوّق الإنسان العادي، كم من الرّغبات يستطيع حقًّا إشباعها في يوم برجوازي محدود بالوقت؟

بالكاد يستطيع كلّ واحد منّا تحقيق جزءٍ واحد من الألف من تطلّعاته. تغلي رغبةٌ لم تُشبَع، ويستحيلُ إشباعها، تُصوّب نحو المُطلَق، في صدر الموظّف، والمتقاعد الصّغير، وأكثر العمّال بؤسًا. بداخلنا جميعا، تتخمّر غاضبةً رغباتٌ سيّئة، إرادةٌ عاجزة تتطلّع للقوّة، وشهوات فوضوية مكبوتة ومشوّهة بجبن، غرورٌ مُقنّع، شغفُ عنيف وغيرة؛ ألا توقظ كلّ امرأة تمرّ عديد الرّغبات الوجيزة على طريقها؟ وكلّ هذا التّعطش للتّملك، كلّ هذه الرّغبات، كلّ هذا الاشتهاء الطّامع غير المُشبَع، هي أشياء تنزلق وتتغلغل، تتشابك، تتراكم شرّيرةً في العقل الباطن، منذ سماعِ صوت المنبّه الصّباحي، إلى غاية حلول اللّيل. ألا ينبغي للرّوح أن تنفجر تحت هذا الكمّ من الضّغط أو أن تفلت لتفرّغ على شكل عنف قاتل، لو لم يوفّر الحلمُ الليلي مُتنفسًا للرّغبات المكبوتة؟

من خلال فتح باب الحلم دون خطر لشهواتنا المحبوسة طوال اليوم، نحن نُحرّر حياتنا العاطفية من هواجسها، ونُزيل سموم أرواحنا، تمامًا مثلما نحرّر الجسدَ عن طريق النّوم من تسميم التّعب. مع دوافعنا الإجرامية، يتمّ "التّنفيس" -عوض أن نترك أنفسنا ننساق خلف أفعالٍ يُعاقَب عليها بالسّجن- بأفعالٍ متخيَّلة وغير مؤذية، في عالم ظاهرٍ يمكننا الوصول إليه نحن وحدنا. الحلم هو بديل الفعلِ الذي كثيرا ما يُجنّبنا إيّاه؛ ولهذا السّبب، تبقى مقولة أفلاطون: "الأخيار هم الذين يكتفون بحلم ما ينجزه الآخرون في الحقيقة" عظيمةً، ومثالية للغاية. لا يزورنا الحلم ليزعج نومنا، بل للحفاظ عليه؛ بفضل رؤاها المهلوِسة، تتحرّر الرّوح المتواجدة تحت الضّغط من توتّراتها- يقول مثل صيني: "ما يتراكم في أعماق القلب، يُعطَسُ في المنام" – بطريقة يجد فيها الجسد في الصّباح روحًا مُطهَّرة وخفيفة، بدل روحٍ تختنق.

أدرك فرويد في هذا الفعل المحرّر المطهّر معنى الحلم في حياتنا، معنًى تمّ تجاهله وإنكاره لفترة طويلة. وينطبق هذا الاكتشاف على الزّائر الليلي تماما كما ينطبق على أيّ نوع من الأحلام الأسمى، وعلى كلّ أحلام اليقظة، مثل الأسطورة والشّعر. إذ ما هدف وإرادة الشّعر إن لم يكن تخليص الإنسان عبر الرّمز من توتّراته الدّاخلية، وإفراغ الفائض الذي يُغرق روحَه إلى منطقة هادئة.

ومثلما يتحرّر الأفراد عبر الحلم من كلّ ما يعذّبهم، ومن كلّ رغباتهم، تهرب الشّعوب من مخاوفها، وتجد منافذًا لإبداعاتها التي نسمّيها ديانات وأساطير: تتطهّر الغرائز الدّموية التي لجأت إلى الرّمزية على المذابح المُقدّسة، وتتحوّل الضّغوطات النّفسية إلى كلماتٍ مُحرِّرة عبر الصّلاة والاعتراف. لم تتجلّ الرّوح الإنسانية إلّا عن طريق الشّعر كخيالٍ خلّاق. نحن مدينون بعرافة قوّة إنجازها فقط لهذه الأحلام المتجسّدة في الدّيانة، والأساطير والأعمال الفنيّة.

لا يمكن لأيّ علم نفسي -وهذا العلم، فرضه فرويد على حقبتنا هذه فرضا- أن يبلغ جوهرَ شخصية الانسان، إن لم يأخذ بعين الاعتبار سوى نشاطه الواعي والمسؤول: عليه أيضا أن ينزل إلى أعماق كيانه السّحيقة، بالتّحديد حيث يشكّل كيانُه الذي ظلّ أسطورةً في تياراتِ الإبداع اللّاواعي الصّورةَ الأصحّ والأصدق عن حياته الدّاخلية.

«من الغريب أنّ الحياة الدّاخلية للإنسان قد دُرست بها السّوء، وعولجت بهذا القدر من الرّداءة. بالكاد استُعمِلت حتّى الآن الفيزياء لصالح الرّوح، والرّوح لصالح العالم الخارجي»

نوفاليس

تقنية التّحليل النّفسي

في أماكن نادرة من القشرة الأرضية المتنوّعة لكوكبنا، يتدفّق البترول من أعماق الأرض، فجأة وبشكل غير متوقّع؛ وفي أماكن أخرى، يلمع الذّهب على رمال الشّواطئ؛ في حالات أيضًا، يظهر الفحم بالقرب من السّطح. لكنّ التّقنية البشرية لا تنتظر أن تتكرّم علينا هذه الظّواهر الاستثنائية هنا وهناك بالحدوث. فهي لا تعتمد على الصّدف، بل تحفر الأرض لتُخرِج السّائل الثّمين ولتجعل الينابيع تتدفّق، وتحفر الأروقة في أحشاء الأرض، تحفر بلا جدوى المئات منها قبل أن تصل إلى المادّة الخام المطلوبة. وبالطّريقة نفسها، لا يُمكن لعلم نفسيٍّ فعّال أن يكتفي باعترافات عرضيةٍ، والتي هي في كلّ الأحوالِ جزئية تولّدها الأحلام والإخفاقات: يجب أيضا، من أجل الاقتراب من طبقة اللّاوعي الحقيقية، أن يلجأ إلى تقنية نفسية، إلى عمل جذري في الأعماق، وأن يلج، بعمل ممنهج، ولا يحيد عن الهدف إلى أعمق أعماق المنطقة السّفلية تحت الأرضية. هذا هو الشّيء الذي توصّل إليه فرويد، وأطلق على طريقته تلك تسمية التّحليل النفسي.

لا تُذكّر هذه الطّريقة بأيٍّ من الطّرق السّابقة، سواء في الطّب كانت

أم في علم النّفس. هي شيء جديد تماما وأصلي، وتُمثّل إجراءً مستقلّا عن الآخرين، علمُ نفسٍ بجانب علوم النّفس القديمة، تحت أرضي إن صحّ التّعبير، وكُنيّت بسبب ذلك، من طرف فرويد نفسه بعلم نفس الأعماق. يستخدم الطّبيب الذي يريد تطبيقه معرفتَه الأكاديمية في حدود جدّ ضئيلة، حتّى وصل الأمر إلى التّساؤل ما إذا كان المحلّل النّفسي فعلا بحاجة إلى تعليم طبّي خاص؛ وبعد أن تردّد مطوّلا، أقرّ فرويد "التّحليل اللّائكي"، بمعنى مزاولة التّحليل من طرف أطبّاء غير حائزين على الشّهادات.

إذ يتخلّى مُعالِج الرّوح بالمعنى الفرويدي عن البحث التّشريحي لفائدة البحث الوظيفي، ويرمي مجهوده إلى جعل غير المرئيّ مرئيًا. وبما أنّه لا يبحث عن أيّ شيءٍ محسوس أو ملموس، فهو ليس بحاجة لأيّ أداة؛ تمثّل الأريكة الذي يجلس عليها كلّ العدّة الطّبية لطريقته هذه في علاج الرّوح. يتجنّب التّحليل النّفسي كلّ نوع من التّدخل، جسديًا كان أو نفسيا. ونيّته ليست "إدخال" شيء جديد في الإنسان، إيمانا، عقيدة أو دواءً، بل "انتزاع" شيء ما موجود بداخله. وحدها المعرفة الفعّالة بالذّات توصِل إلى الشّفاء بالمعنى التّحليلي للكلمة، فقط عندما يُعادُ المريض إلى نفسه، إلى شخصيّته وليس فقط إلى عقيدةٍ شافية عادية، يصبح حينها سيّد مرضه والمسيطر عليه.

وبهذا، لا تتمّ العملية من الخارج، بل تتمّ بالكامل داخل العنصر

النّفسي للمريض.

لا يُضيف الطّبيب إلى هذا النّوع من العلاج سوى تجربته، مراقبته وتوجيهه الحذر الحكيم. فهو لا يملك علاجات جاهزة مثل الطّبيب المُمارِس: هو ليس علما موصوفا وجاهزا، وليس صيغًا ولا قوانين، بل يتمّ استخلاصه تدريجيًّا من الجوهر الحيوي للمريض نفسه. أمّا هذا الأخير فهو لا يجلب للعلاج غير صراعه. لكن بدل أن يجلبه بشكل واضح وعلني، يعرضه مختفيا تحت السّتار، وراء الأقنعة والتّشوهات الأكثر غرابة، والأكثر خداعًا، لدرجةٍ يصعب فيها في البداية تمييز طبيعة اضطرابه سواء بالنّسبة له، أو لطبيبه. ما يُظهِر مريض العُصاب أو يعترف به ليس إلّا عرضا. لكنّ الأعراض، في الحياة النّفسية، لا تُظهر أبدا المرض بوضوح، بل على العكس تُخفيه؛ لأنّه وفقًا لمفهوم فرويد الجديد تمامًا، أمراض العُصاب بحدّ ذاتها لا معنى لها، لكنّ لكلٍّ واحد منها أسبابٌ مختلفة. ما يجعله مضطربا فعلا، مريض العُصاب لا يعرفه، أو لا يريد معرفته، أو لا يعرفه بطريقة واعية.

يتجلّى صراعه الدّاخلي ومنذ سنوات من خلال أعراض كثيرة، وأفعال قهرية، حتّى أنّه وفي النّهاية لا يعرف مضمونه. وعندها، يتدخّل المُحلّل النّفسي. تكمن مُهمّته في مساعدة مريض العُصاب على فكّ اللّغز الذي يمتلك حلّه هو شخصيا. يبحث معه فوق سطح مرآة الأعراض عن النّماذج الأصلية للاضطراب؛ خطوة بخطوة، يتحكّمان

سويًا بأثرٍ رجعي في حياة المريض النّفسية حتّى الكشف عن الصّراع الدّاخلي والتّوضيح النّهائي له.

تُذكّر بادئ الأمر تقنية هذا العلاج عن طريق التّحليل النّفسي بعلم الإجرام أكثر منها بالطّب. عند كلّ مصاب بالعُصاب، عند كلّ مصاب بالوهن العصبي، وِفقًا لفرويد، كُسِرت وِحدة الشّخصية، ولا يُعرف لا متى ولا كيف حدث هذا الكسر، وأوّل إجراءٍ يجب اتّخاذه هو الاستعلام بأكبر دقّة ممكنة عن "حقائق السّبب"؛ يجب إعادة تكوين كلّ من مكان وزمان وشكل هذا الحدث الدّاخلي المنسيّ أو المكبوت بواسطة الذّاكرة النّفسية، بأكبر قدر ممكن من الدّقة. لكن، ومنذ هذه الخطوة الأولى، تواجه عمليةَ التّحليل النّفسي صعوبةٌ غير مسبوقة.

إذ أنّه، وفي التّحليل النّفسي، يُمثّل المريض إلى حدٍّ ما كلّ شيء في آنٍ واحد. هو من ارتكَب الجُرْم بحقّه، وهو المُجرم أيضًا. إنّه من خلال هذه الأعراض، المُدّعي والشّاهد، وفي الوقت نفسه، هو من يُخفي الحقائق، يعتّمها ويخلطها ويشوّشها بشراسة. في مكانٍ ما، في أعماق نفسه، هو يعرف حقيقة ما حدث، لكنّه في الوقت ذاته لا يعرف، ما يبوح به من مُسبّبات ليست السّبب الحقيقي؛ ما يعرفه، هو في الأصل لا يريد معرفته، لكنّه يعرف، رغم ذلك، بطريقة ما. لكن الشّيء الأعجب من كلّ هذا، هو أنّ هذه المحاكمة لم تبدأ عند

استشارة طبيب الأعصاب؛ في الحقيقة هي مستمرّة منذ سنوات بلا انقطاع عند مريض العُصاب، دون أن تكون قادرة على الانتهاء. وما يجب أن يتحصّل عليه التّدخل التّحليلي باعتباره الملاذ الأخير، هو بالفعل نهاية هذه المحاكمة، وهو إذن دون أن يعي ذلك، ولبلوغ هذه النّتيجة، وهذا الحلّ، يلجأُ المريض إلى الطّبيب.

لكن التّحليل النّفسي لا يحاول، بوصفة سريعة أن يقتلعَ مريض العُصاب على الفور من صراعه الدّاخلي، ذاك الذي ضاع في متاهته الرّوحية. بل على العكس، يجلبه أوّلا من خلال مسارِ تيهِ حياته إلى المكان الحاسم الذي بدأ فيه الانحراف الخطير. وليُصحِّح في النّسيج الخاطئ الحبكةَ الخاطئة، ولكي يعيد ربط الخيط، على الحائك أن يعيد وضع الماكنة في المكان الذي انقطع فيه الخيط. وعلى نفس المنوال، لتجديد استمرارية الحياة السّابقة، تتوجّب على طبيب الرّوح العودة التي لا مفرّ منها مرارا وتكرارا إلى المكان الذي وقع فيه الانحراف والانكسار: فلا مكان لا للتّسرع، ولا للحدس، ولا للتّكهن. في مجالٍ مجاور، كان "شوبنهاور" قد أعرب بالفعل عن فرضية احتمال الشّفاء الكامل من الاضطراب العقلي، لو كان بالإمكان بلوغ مكانِ وقوع الصّدمة الحاسمة في الخيال؛ بغاية فهم ذبول الزّهرة، على الباحث النّزول حتّى الجذور، إلى غاية اللّاوعي.

ويجب السّير في متاهة سُفلية شاسعة مليئة بالانعطافات، والمخاطر

والفخاخ. تماما مثلما يصبح الجرّاح خلال العملية أكثر حذرا وحرصا مع اقترابه من نسيج الأعصاب الحسّاس، تتحسّس تقنية التّحليل النّفسي ببطء مُضنٍ، من خلال هذه المادّة الشّديدة الحساسية، من طبقة حياةٍ لطبقةِ حياةٍ أخرى أكثر عُمقا. لا يدوم كلّ علاج أيّامًا، ولا أسابيعًا، لكن دائما شهورًا، وأحيانا سنوات؛ يتطلّب من المُعالِج تركيزًا للرّوح لم يكن الطّب يشكّ بوجوده حتّى ذلك الحين، والذي لا يمكن مقارنة قوّته وصلابته إلّا بتمارين الإرادة عند اليسوعيين.

كلّ هذا يتمّ خلال العلاج دون تدوين ملحوظات، دون مساعدة أيّ كان نوعها، الوسيلة الوحيدة المُستخدمة هي المُلاحظة، ملاحظة تمتدّ على مساحات زمنية شاسعة. يجلس المريض على أريكة بطريقة لا يرى فيها الطّبيب الجالس خلفه (وهذا من أجل إزالة قيود الخجل، والوعي)، ويتحدّث. لكنّ لا يوجد فيما يقوله أيّ تسلسل، عكس ما تظنّ الأغلبية؛ هذه العملية ليست اعترافًا. إذا ما شُوهِد من ثقب المفتاح، هذا العلاج يعرض أبشع مشهد، إذ لا يحدث شيء طيلة أشهر وأشهر، فقط رجلان، أحدهما يتكلّم والآخر يستمع.

يوصي المُحلّل النّفسي خاصّة مريضه بأن يتخلّى في سرده عن كلّ تفكير واعٍ، وألّا يتدخّل في العملية السّائرة بصفته محاميا، حَكَمًا أو مُدّعيًا؛ لا يجب عليه أن يريد أيّ شيء، بل فقط أن يستسلم دون تفكير أو عقلنة للأفكار التي تتبادر إلى ذهنه لا إراديًا (إذ وبالتّحديد، لا

تأتيه هذه الأفكار من الخارج، بل من الدّاخل، من اللّاوَعْي). ليس عليه أن يبحث عمّا يتعلّق بالحالة حسب رأيه هو، فاختلال توازنه النّفسي يُبيِّن بالضّبط أنّه يجهل ما هي "حالته"، مرضه. لو كان يعلم، لكان سويًّا نفسيّا، ولما اختلق لنفسه أعراضًا واحتاج لطبيب.

ولهذا السّبب، يرفض التّحليل النّفسي جميع التّقارير المهيّأة أو المدوّنة كتابيا، ولا يطلب من المرضى إلا قصّ كلّ ما يتبادر إلى الذّهن من ذكريات نفسية دون تسلسل. يتوجّب على مريض العُصاب التّحدث بشكلٍ مباشر، يتحدّث عن نفسه ليخرج من نفسه، أن يقول صراحةً كلّ ما يتبادر إلى ذهنه، دون ترتيب، حتّى ما ليس له قيمة ظاهريّا، لأنّ أكثر الأفكار غير المتوقّعة، وأكثرها عفوية، تلك التي لم يُبحث عنها، هي الأهمّ بالنّسبة للطّبيب. لا يمكن لهذا الأخير الاقتراب من الأساسيّ إلّا من خلال هذه "التّفاصيل الثّانوية". لا يهمّ إن كان صحيحا أم خاطئا، مهمّا أم تافها، صادقًا أم تمثيليا؛ فمهمّة المريض الأساسية هي أن يتحدّث كثيرا، أن يوفّر أكبر كميّة ممكنة من المادّة الخام، من سيرته الذّاتية وطبائع شخصه وروحه.عندها، يبدأ عمل المُحلّل الفعلي.

عليه أن يمرّر في المنخل النّفسي، العديد من الكُوَم المُحمّلة شيئا فشيئا بالحطام الهائل للصّرح الحيوي الذي تداعى–آلاف الذّكريات، والملاحظات، وسردٍ للأحلام التي قدّمها له المريض؛ عليه أن يرفض

منها خَبَثَ المعدن ليستخلص من المواد الخام التي تتبقّى له، عن طريق صهرٍ بطيء، المادّة التّحليلية النّفسية الحقيقية. لا يجب أبدا أن يُولي أهميّة كاملة للمادّة الأوّلية لسرد مرضاه، دائما عليه أن يتذكّر "أنّ ما يعبّر عنه المريض وأفكاره، ما هي في الحقيقة سوى تشوّهات لما يتمّ البحث عنه، أوهام، إن صحّ التّعبير، تختفي وراءها أشياء سيتعيّن تخمينها". ما يهمّ بهدفِ تشخيص المرض، ليست هي الأشياء التي يعيشها مريض العُصاب (التي تمّ التّخلص منها منذ فترة طويلة مِن روحه) بل الأشياء التي لم يعشها بعد، هذا الكمّ الشّعوري الإضافي غير المُوظَّف والذي يقمعه مثل قطعةٍ لم يتمّ هضمها وتبقى ثقيلةً على المعدة، والذي مثلها تماما يبحث عن منفذ، لكنّه مُوقّف في كلّ مرّة بإرادةٍ مُعاكِسة. هذا العنصر المُثَبِّط، وتثبيطه، على الطّبيب أن يسعى لتحديدهما في كلّ الأقوال والمظاهر النّفسية "باهتمام مُتساوٍ ودقيق" ليصل شيئا فشيئا إلى الشّك، ومن الشّك يبلغ اليقين.

لكن هذه المُلاحظة الهادئة، والموضوعية، والممارسَة من الخارج هي في الآن نفسه له مُسهّلة ومتعسّرة، خاصّة في بداية الفترة العلاجية، وذلك بسبب موقف المريض العاطفي الذي يكاد يكون شبه حتمي، والذي يطلق عليه فرويد اسم "التّحويل". قبل أن يلجأ مريض العصاب إلى الطّبيب، يكون قد حمل بداخله مُطوَّلا، دون أن يتمكّن أبدًا من التّخلص منه، زيادةَ الإحساس لما لم يُجرّب بعد، وما

لم يُوظَّف. ينقله معه من خلال عشرات الأعراض، ويُمثّل على نفسه، عن طريق الألعاب الأكثر غرابة، صراعَه الخاصّ الواعي؛ لكنّه وما إن يجد لأوّل مرّة في شخص المحلّل النّفسي مستمعا مهتمّا متيقّظا، وشريكًا احترافيًا، حتّى يلقي عليه على الفور بعبئه مثل الكرة، يريد أن يُفرغ له عواطفه غير المُوظَّفة.

ويقيم بين الطّبيب وبينه نوعًا من "العلاقة"، العلاقات العاطفية القويّة، كُرهٌ أو حبّ لا يهم. ما كان يتخبّط إلى ذلك الحين في عالم وهمي، دون أن يظهر بوضوح أبدًا، ينجح في أن يترسّب ويُثبّت نفسه على لوحٍ فوتوغرافي. وحده هذا التّحويل يخلق الحالة التّحليلية حقّا: ويجب اعتبار المريض غير القادر على خلقه غير مناسب للعلاج. إذ أنّ الطّبيب، وليتعرّف على الصّراع، عليه أن يراه يحدث أمامه على شكلِ هيئةٍ حيّة: وعلى المريض والدّكتور أن يعيشاه ويجرّباه سويّا.

يتمثّل هذا الاشتراك في العمل التّحليلي في كون مهمّة المريض هي إعادة خلق الصّراع، ومهمّة الطّبيب هي شرح معناه. ومن أجل هذا الشّرح، أو التّفسير، فهو لا يعتمد إطلاقا (مثلما قد نفترض مُتسرّعين) على مساعدة المريض؛ يُسيطر على كلّ نفسيّة ازدواجيةً، والمعنى المزدوج للمشاعر. يتشبّث المريض نفسه الذي لجأ إلى الطّبيب للتّخلص من مرضه -والتي لا يعرف منه غير العرض- في الآن ذاته بطريقةٍ لاواعية به، لأنّ هذا المرض بالذّات لم يعد يُمثِّل بالنّسبة له

أمرًا غريبًا، بل هو نتاجه الخاص، أكثرُ أعمالِه حميميةً، جزءٌ فعّال ومُميّز من "الأنا" الخاص به والذي لا يرغب في التّخلص منه على الاطلاق.

يتشبّث بقوّة بمرضه، لأنه يفضّل أعراضه المزعجة على الحقيقة التي يخشى، والتي يريد الطّبيب أن يشرحها له (باختصار، ضدّ إرادته). وبما أنّه يشعر ويفكّر بطريقة مُضاعفة، من ناحيةٍ من وجهةِ نظر اللّاوعي، ومن ناحية أخرى من وجهةِ النّظر الواعي، هو في آنِ الصّائدُ والفريسة المُطارِدَة؛ مساعدُ الطّبيب هو فقط جزءٌ من المريض، إذ يظلّ الجزء الآخر خصمه الألد، بينما يناوله طواعيةً ظاهريا بيدِ الاعترافات، هو يخلط عليه بيده الأخرى في الآن ذاته الحقائقَ ويخفيها. إذن فمريض العُصاب عاجزٌ عن مساعدةِ الّذي يريد تخليصه، عاجز عن قول "الحقيقة" له، فبالتّحديد عدم معرفته بها، أو عدم رغبته بمعرفتها، هو ما ولّد بنفسه فقدان التّوازن هذا، وهذا الاضطراب.

هو يكذب على نفسه حتّى في لحظات صراحته. وراء كلّ صراحة يعلن عليها تختفي حقيقة أعمق، وعندما يعترف بشيء، ما الغاية من الأمر سوى أن يخفي وراء ذلك الاعتراف سرًّا أكثر خصوصيّة. الرّغبة في الاعتراف والخجل يختلطان ويحتدمان هنا بغرابة؛ يعطي المريض من خلال حكيه أحيانا من ذاته، وأحيانًا أخرى يتحكّم في

نفسه ويختفي وراء الكلمة، تبقى رغبته في الاعتراف مكبوحة حتمًا بالتّثبيط. شيءٌ ما، بداخل كلّ إنسان يتقلّص مثل العضلة، ما إن يريد شخص آخر معرفةَ سرّه الدّفين: فكلّ تحليل نفسي، ما هو في الحقيقة إلا صراع.

لكن تستطيع عبقرية فرويد دائمًا أن تصنع من ألدّ الأعداء أفضلَ مُساعِد. غالبا ما تخون هذه المقاومة نفسها عبر الاعتراف اللّاإرادي. للملاحظ الذي يحسن الإصغاء، يخون الإنسان نفسه مرّتين خلال المُقابلة، أوّلاً بمَا يقول، وثانياً بما يسكت عنه. وتحديدا، عندما يريد المريض التّحدث، ولا يستطيع، يمارَسُ فنُّ التّحري الخاصّ بفرويد بتأكيد أكثر ليخمّن وجودُ لغزٍ حاسم: يتحوّل التّثبيط إلى مساعد غادر، ويشير إلى الطّريق. عندما يعبّر المريض عن نفسه بصوت صاخب أو خافت، عندما يتردّد أو يسارع، ذاك يعني أنّ اللّاوعي يريد التّعبير عن نفسه حينها. وكلّ هذه المقاومات الصّغيرة التي لا تعدّ ولا تحصى، هذا التّباطؤ، هذه التّقلبات، التّرددات الطّفيفة، بمجرد أن نقترب من عقدة معيّنة، تُظهِر أخيرًا بوضوح مع التّثبيط مسبّباتها ومُحتواها، أي باختصار، الصّراعَ الخفيّ والسّري.

لأنّه دائمًا ما يتعلّق الأمر في سياق التّحليل النفسي باكتشافات مُتناهيةِ الصّغر لأجزاءَ شديدة الصّغر من أحداثٍ عاشها المريض، والتي ستتكّون منها فسيفساءُ الصّورةِ الحيوية الدّاخلية تدريجياً.

لا يوجد شيء يضاهي سذاجة الاعتقاد السّائد الذي تمّ تبنّيه في الصّالونات والمقاهي، والذي مفاده أنّه يكفي بأن تُرمَى في المحلّل النّفسي، مثلما لو كان آلة أوتوماتيكية، الأحلامُ والاعترافات، وأن نُشغّله ببعض الأسئلة، لنستخلص منه التّشخيصَ على الفور.

في الواقع، كلّ علاج تحليلي، هو عمليةُ بالغة التّعقيد، لا تمتّ للآليّة الميكانيكية بِصلَة، وبالأحرى، فيها من الفنّ، وأفضل ما يمكن مقارنتها به، هو التّرميم الأنيق للوحة قديمة وُسّخت وأُعيد رسمُها بأيادٍ خرقاء- عمليةٌ تشترط صبراً مثيرًا للإعجاب، يجب إعادة إحياء المادّة الثّمينة والحسّاسة ميليمترا بعد الآخر، وطبقةً بعد الأخرى، قبل أن يظهر الرّسم الأصلي بألوانه الطّبيعية. على الرّغم من اهتمامه المُستمر بالتّفاصيل، إلّا أنّ المُحلّل النّفسي لا يستهدف إلّا الصّورة الكلية، والتي هي إعادة بناء الشّخصية: ولهذا السّبب، ففي التّحليل النّفسي الحقيقي، لا يُمكن أبدًا التّوقف عند عقدة منعزلة، في كلّ مرّة، وانطلاقًا من الأساس، يجب إعادة بناء كلّ الحياة النّفسية للشّخص.

الميزة الأولى إذن التي تتطلّبها هذه الطّريقة هي الصّبر المصحوب بيقظة دائمة – دون أن تكون متوتّرةً بشكل واضح - للعقل؛ ودون أن يُظهر أنّه يفعل ذلك، على الطّبيب أن يوزّع اهتمامه بطريقة عادلة بحيادية دون حكم مسبق بين أقوال المريض وصمته، مراقبا زيادةً

على ذلك بدقّة الفُروقَ الدّقيقة في قصته. وعليه في كلّ مرة مُقارنة إفادات الجلسة مع إفادات جميع الجلسات السّابقة، ليلاحظ أيّ الحلقات يُكرّر محدّثه الأكثر، وعند أيّ نقطة يناقض سرده نفسه، لكن دون أن يخون أبدًا بيقظته هدف فضوله. لأنّه بمجرد أن يشعر المريض أنه يتعرّض لكمين، يفقد عفويته - والتّي وحدها تجلب تلك الومضات الفسفورية القصيرة من اللّاوعي، والتي يتعرّف الطبيب في ضوئها على ملامح المشهد في هذه الرّوح الأجنبية.

لكن، لا ينبغي له أن يفرض تفسيره الخاص على مريضه أيضا، إذ أنّ معنى التّحليل النّفسي هو تحديدًا فرض استوعاب ذات المريض لتتطوّر. لا تتحقّق حالة الشّفاء المثالية إلّا عندما يعترف المريض أخيرا في قرارة نفسه بعدم جدوى تلك المظاهر العُصابية، ولا يبذل بعد ذلك طاقاته العاطفية في الأحلام والأوهام، بل يُترجمها إلى أفعالٍ حقيقية. عندها فقط، يكون المحلّل قد انتهى مع المريض.

والسّؤال الشّائك هو: كم مرّةً يصل فيها التّحليل النّفسي إلى حل بهذه المثالية؟ أخشى أنّ هذا لا يحدث كثيرًا. لأنّ فنّ الاستجواب والاستماع يتطلّب عنده سماعًا للقلب بشدّة، بصيرةَ الشّعور، وتوافقًا رائعًا بين خامات الرّوح الأثمن؛ وحده إنسان صاحب قَدَرٍ عظيم، إنسان سمع النّداء الدّاخلي لطبيب النّفس بذاته، قادر على أن يكون مُعالجًا. يمكن للعلم المسيحي، "الإيحاء الذّاتي"، أن يُدرّبا مُصلحين

بُسطاءَ في آلياتهم. فيكفي تلقينهم بعض العبارات النّموذجية عن ظهر قلب، مثل: "لا وجود للمرض"، أو "أنا أحسّ بحالٍ أفضل مع مرور كلّ يوم"؛ بواسطة هذه الأفكار الفظّة، تضرب أقسى الأيدي دون خطورةِ الأرواحَ الضّعيفة، حتّى يتمّ تدمير تشاؤم المرض تمامًا.

لكن من خلال عملية العلاج التّحليلي النّفسي، من واجب الطّبيب الصّادق فعلا، أن يجد لكلّ حالةٍ فردية نظامًا علاجيا مُستقلًا، وهذا النّوع من التّأقلم المبدع الخلّاق لا يُلقّن، مهما كان قدر العناية والذّكاء اللذين وُضِعا في ذلك التّلقين. يشترط الأمر عارفًا بالرّوح وُلِد كذلك بالفطرة، موهوبا بملكية الدّخول عبر الذّهن، الفكرة والعاطفة في أقدار الغُرباء، ومتملّكًا إضافة إلى ذلك الكثير من اللّباقة، والكثير من الصّبر في قدرته على الملاحظة. بالإضافة إلى ذلك،

على المحلّل النّفسي صاحب الإنجازات الفعلية أن يحرّر نوعًا من العنصر السّحري، تيّار من الإحساس بالتّعاطف والأمان، قد تلجأ أيّ روح إليه للاعتراف بطاعةٍ حماسيّة -وهي ميزات لا يمكن تعلّمها، ولا يمكن أن تجتمع في رجل واحد إلّا بنعمة إلهية. تبدو لي أنّ ندرة أساتذة الرّوح الحقيقيين أولئك هي السّبب الذي من أجله سيظلّ التّحليل النفسي دائمًا مهنةً في متناول قلّة قليلة، ولا يمكن أبدًا اعتباره حرفةً أو عملًا-وذلك على عكس ما هو بصدد الحدوث كثيرا للأسف هذه الأيّام. لكن يُظهر فرويد تساهلًا غريبًا في هذا الموضوع؛ وذلك عند

قوله أنّ الممارسة الفعّالة لفنّه في التّفسير تشترط، بطبيعة الحال، اللّباقة والخبرة، وأنّها ليست "صعبة التّعلم إطلاقا"، من حقّنا أن نضع في نهاية جملته هذه نقطة استفهام بالخطّ العريض، والذي يكاد يكون غاضبا.

تبدو لي كلمة "الممارسة" بائسة أصلا بالنّسبة لعملية تشترط توظيف أكبر قوى العلم النّفسي، وحتّى اللجوء إلى نوع من الالهام النّفسي؛ لكن، قول أنّ هذه "الممارسة" تُكتسَب بسهولة يبدو لي فعلا خطيرا. إذ انّ الدّراسة الجدّية بضمير صاحٍ لتقنية علم النّفس لا تصنع عالم النّفس الحقيقي كما لا تصنع دراسة النّظم الشّاعر؛ ولهذا السّبب، لا يجدر بغير الذي وُلِد عالما نفسيا وهو موهوب بتلك القدرة على التّوغل في الرّوح البشرية أن يكون له الحقّ في لمس هذا "العضو" الذي يعتبر الأكثر حساسية، والأكثر دقّة من بين باقي الأعضاء. نرتعش بمجرّد التّفكير في الخطر الذي يمكن أن تتحوّل له بين أيدٍ سيّئة النّية المنهجية الاستقصائية للتّحليل النّفسي التي أنجبها عقل فرويد الخلّاق في أسمى ضمير حساسيتّه الشّديدة.

لم يضرّ شيء بالتّحليل النّفسي بقدر حقيقة أنّها لم تبق حكرا على نخبة معيّنة، أرستقراطيّة الرّوح، وأُريدَ لها أن تُلقّن في المدارس، وهي الشّيء الذي لا يُلَقَّن. لأنّ الانتقال المُتسرّع والمتهوّر من يد إلى يد أخرى للعديد من أفكارها لم يجعلها أوضح تحديدا، بل على العكس،

ما ينتحل صفةَ التّحليل النّفسي الهاوي أو المحترف اليوم، في العالم القديم وأكثر منه في العالم الجديد، هو مجرّد مُحاكاةٍ ساخرة بائسة لعملِ سيغموند فرويد الأصلي القائم على الصّبر والعبقرية. على الذّي يريد أن يحكم بحيادٍ أن يلاحظ أنّه، ونتيجةً لتحليلات الهوّاة هذه، لا يُمكننا إدراك نتائج التّحليل النّفسي في الوقت الرّاهن بصدق، نتيجة تدخّل الهوّاة الملتبس، هل بالإمكان تأكيده كمنهجية سريريّة دقيقة؟ لسنا نحن من نقرّر، بل على المستقبل أن يفعل.

تقنية فرويد التّحليلية، وهذا الشّيء الأكيد الوحيد، بعيدة كلّ البعد عن أن تكون آخر كلمة في مجال الطّب النّفسي. لكنها ستحتفظ إلى الأبد بالمجد، كونها فتحت لنا كتابا بقي مطويّا لفترة طال أمدها، ومثّلت أوّل محاولة منهجية أُجريت بهدف فهم وعلاج الفرد باستعمال المادّة نفسها التي تُكوّن شخصَه. بحدسه الرّائع، شجب فرويد وحده الفراغ-vacuum - في الطّب الحديث، والحقيقة التي لا يمكن تصورها هي أنّه تمّ اكتشاف علاجات منذ أزمنة غابرة تخصّ أجزاء من جسم الإنسان أقلّ أهميّة -كعلاج الأسنان، والجلد والشّعر- بينما لم تجد أمراض الرّوح وحدها ملاذًا في العلم. حتّى بلوغه سن الرّشد، يساعد المعلّمون الفرد الذي هو في صدد التّكون، ثمّ يتخلّون عنه بلا مبالاة تاركينه مع نفسه.

بينما يتمّ نسيان الذين لم يكملوا تعليمهم كليّا، والذين لم ينضج

فكرهم -pensum - يجرّون صراعاتهم الدّاخلية التي لم يتمّ "التّنفيس" عنها في حالة من العجز. بالنّسبة لمرضى العُصاب، والذّهان أولئك، مُتخلّفو العقل، المساجين في عالم غرائزهم، لم يكن يوجد مجال للفحوصات، كانت الرّوح المريضة تهيم دون سند في الطّرقات بحثا عن مساعدة دون جدوى. وقد عالج فرويد هذا النّقص. وعَهِدَ بالمكانة التي كان يتبوّأها بقوّة قديما المعالجُ والحكيم، وفي حقب التّدين الكاهن، الآنَ إلى علم جديدٍ وحديث لسنا نرى بعدُ كاملَ حدودِه. لكنّ طريق المهمّة مرسوم بطريقة رائعة، والباب مفتوح. وحيث يشتمّ العقل البشري المساحة والأعماق غير المكتشفة، لا يهدأ، بل يُقلِعُ ويفرد جناحيه اللّذين لا يعرفان الكلل.

«حتّى غير الطّبيعي جزءٌ من الطّبيعة. من لا يراها في كلّ مكان، لن يراها بوضوح في أيّ مكان»

جوته

عالم الجنس

حقيقة كون سيغموند فرويد قد أصبح مؤسِّسًا لعلمٍ جنسي لم يعد بالإمكان الاستغناء عنه اليوم، حدث، بالفعل، دون أن ينوي هو ذلك. ولكن، كما لو كان واحدًا من قوانين حياته السّرية، يجعله مساره يتجاوز دائما ما كان يسعى إليه في البداية، ويفتح له مجالات لم يكن ليجرؤ الولوج فيها أبدًا بمحض إرادته. وهو بسنّ الثّلاثين، كان سيستقبل بابتسامة غير مصدّقة ذاك الذي يتنبّأ له أنّه هو، طبيب الأعصاب، من سيصنع من تفسير الأحلام ومن التّنظيم البيولوجي للحياة الجنسية موضوعًا لعِلْمٍ جديد؛ إذ لم يكن أيّ شيء إطلاقا في حياته الأكاديمية أو الشّخصيّة يدلّ على أدنى اهتمام لهذه الأشياء السّخيفة غير السّوية. وصول فرويد إلى المشكلة الجنسية لم يحدث لأنّه أراد ذلك؛ بل لأنّ المُشكلة جاءت بشكلٍ طبيعيّ من تلقاء نفسها، في سياق بحثه.

وقد أتت المشكلة، فجأة دون أن تكون لا مرغوبة، ولا مُتوقّعة، من أعماق الهاوية التي اكتشفها رفقة "بروير". انطلاقا من الهستيريا، وجدا سويًا صيغةً كاشفة مفادها أنّ العُصاب، ومعظم الاضطرابات

النّفسية، تنشأ من رغبةٍ لم تُشْبَعْ، عندما تُقيّد ويُدفع بها لتُكبت إلى اللّاوعي دون أن تتحقّق. ولكن، إلى أيّ فئة تنتمي أساسًا الرّغبات التي يكبتها الإنسان المُتحضّر، والتي يخفيها عن العالم، وغالبًا أيضا عن نفسه كونها الأكثر حميميّةً وإحراجًا؟ لا يستغرق فرويد وقتًا طويلاً ليُعطي لنفسه إجابةً واضحةً لا لُبس فيها. يُظهر أوّل علاج تحليلي لحالة عُصابٍ قوى جنسية شهوانية مَكبوتة. والثّاني، الشّيء نفسه، والثّالث أيضًا. وسرعان ما عرف فرويد أنّه دائمًا أو تقريبًا دائما ما يكون سبب العُصاب رغبة جنسية لا يُمكن تحقيقها، والتي تتحوّل إلى احتقانٍ وكفّ (تثبيط)، لتضغط بثقلها على الحياة النّفسية.

أوّل شعورٍ لفرويد أمام هذا الاكتشاف العرضي ربّما كان الدّهشة، كون حقيقة بمثل هذا الوضوح قد أفلتت من جميع من سبقوه. أحقًا لم يلاحظ أحدٌ هذه السّببية المباشرة؟ لا، لم يَرِد ذكرها في أيّ مرجع. لكن بعد ذلك، يتذكّر فرويد فجأةً بعض تلميحات ومحادثات أساتذته المشاهير. عندما عهد له "شروباك" بمريضة هستيريا كان عليه أن يعالج أعصابها، ألم يكن يخبره بطريقة غير مباشرة وبتكتّم أنّ هذه المرأة المتزوّجة من رجل عاجز جنسيا، ظلّت عذراء بعد ثمانية عشر عامًا من الزّواج، أولم يكن يعطيه، وهو يمزح بفظاظة رأيَه الشّخصي بخصوص الوسيلة الطّبيعية التي أرادها الرّب لعلاج مريضة العصاب تلك بشكل أسهل؟ وبالمثل، في حالة مُشابهة، ألم يُحدّد

أستاذه "شاركو" في باريس، أثناءَ محادثة أصلَ مرضٍ عصبي عند قوله: "يتعلّق الأمر دائما بالشّيء الجنسي، دائما!- Mais c'est toujours la chose sexuelle, toujours!-". ويستغرب فرويد. كانوا إذن على علم بالأمر، أساتذته، واحتمالُ عدد لا يحصى من الهيئات الصّحية الرّسمية من قبل أيضا. لكن، يتساءل فرويد بصدقه السّاذج المعهود، لو كانوا يعلمون، لماذا أبقوا الأمر سرّا ولم يذكروه إلّا في محادثاتهم الحميمة، وأبدًا في العلن؟

وسرعان ما سيتم إفهام الطّبيب الشّاب بحيويّة وعنفٍ لِمَ حجب أصحاب الخبرة معرفتهم تلك عن العالم. فبالكاد نقل فرويد اكتشافه بواقعية هادئة من خلال الصّيغة:

"ينشأ العُصاب حيثُ تَمنع عوائق خارجية أو داخلية الإشباعَ الحقيقيّ للحاجةِ الشّهوانية"، حتّى تندلع مقاومة شرسة من اليمين، ومن اليسار. يرفض عِلْمُ تلك الفترة، بصفته حامل مشعل الأخلاق الذي لا يهتز، الاعترافَ علانية بهذه السّببية الجنسية؛ حتّى صديقه "بروير"، والذي وجّهه إلى مفتاح اللغز، انسحب على عجل من ميدان التّحليل النّفسي، في اللحظة التي أدرك فيها أيّ نوعٍ من صندوق "باندورا" قد ساعد على فتحه. سرعان ما يتعيّن على فرويد أن يدرك أن هذا النّوع من التّصريح، في العام ١٩٠٠، يلامس نقطةً تكون فيها الروح، تمامًا مثل الجسد، الأكثر حساسية ودغدغة؛

ففرور قرن الثّقافة يفضّل تحمّل أي تجديدٍ فكري بدلاً من أن يُذَكّر بأنّ الغريزة الجنسية لا تزال تهيمن على الفرد وتُحدِّدُه، وأنّها تلعب دورًا حاسمًا في أسمى إبداعات الحضارة. لا يوجد في اعتقاد المجتمع تهديدٌ لثقافته أكبرَ من تحرير الغرائز الجنسية، وعودتها إلى أهدافها الأصلية. ولذلك، لا يروق للمجتمع أن يُذكَّر بهذا الجزء المُحرِج لأساساته. ولا مصلحة له في أن يتم الاعتراف بقوّة الغرائز الجنسية، وأن يتمّ الكشف عن أهمّية الجنس بالنّسبة للفرد. فهو قد قرّر بالأحرى نشر تعليمٍ يصرف النّظر والاهتمام عن كلّ هذا المجال. ولهذا السّبب، فهو لا يحتمل نتيجة أبحاث التّحليل النّفسي، ويفضّل، فوق كلّ اعتبار وصمها بالمقرفة من النّاحية الجمالية، أو المدانة أخلاقياً، أو المستهجنة الخطيرة.

تقطع هذه المقاومةُ الإيديولوجية لحقبةٍ بأسرها الطّريقَ أمام فرويد منذ الخطوة الأولى. وسيُحسَب لمجدِ نزاهته أنّه لم يكتفِ فقط بتقبّل النّضال بحزم، بل أنّه جعله أكثر صعوبة بسبب طبعه العنيد. كان فرويد قادرا على التّعبير عن كلّ شيء، أو تقريبا كلّ شيء دون التّسبب في الكثير من الإزعاج، لو أنّه فقط أظهر استعداده لصياغة السّببية الأصلية للحياة الجنسية بقدر أكبر من الاحتياطات والسّلاسة. ما كان عليه إلّا أن يغطّي قناعاته بمعطفٍ أسلوبي، وأن يبهرجها بمساحيق التّجميل الشّعرية، كانت حينها ستجد طريقها

إلى الجمهور دون أن تعلن عن نفسها. ربّما كان يكفيه أن يُطلق على "الغريزة القضيبية البرّية" -والتي أراد أن يبرهن للعالم في عريها عن مداها وفوعتها وضراوتها- بطريقة أكثر تهذيب تسميةَ: إيروس، أو "الحب" بدلا من "ليبيدو". بقوله أنّ "إيروس" يهيمن على حياتنا النّفسية، كان سيُذكّر على الأكثر بأفلاطون.

لكن فرويد، المعادي لأنصاف الحلول والتّسويات الجزئية، يستعمل كلمات قاسية، جارحة، حاسمة، لا يمكن لأحد أن يخطئ معناها؛ ولا يتساهل في أيّ تدقيق: فهو يوظّف كلمة "ليبيدو" عندما يتعلّق الأمر بالمتعة، والغريزة الجنسية، والجنس عوض أن يقول "إيروس"، و"حب". يظلّ فرويد شديدَ الصّراحة بطريقة تمنعه من أن يلجأ بحذرٍ إلى التّعبيرات المجازية. ويسمّي الأشياء بمسمّياتها (Il appelle un chat un chat)، ويعطي للأشياء والانحرافات الجنسية أسماءها الحقيقية، بنفس الطّبيعية التي يسمّي بها المسّاح الجغرافي جباله ومدنه، أو عالم نباتات أعشابه ونباتاته. يتفحّص، بهدوء وبرودة دم إكلينيكية جميعَ التّعبيرات الجنسية، حتّى تلك التي تسمّى رذائل وانحرافات، غير مبالٍ بالسّخط الأخلاقي وصرخات الحياء الخائفة؛ وهو مغلق آذانه إن جاز التّعبير، يدخل بصبر وهدوء في المشكلة التي اكتُشفت فجأة ويشرع بمنهجية في أوّل دراسة نفسية -جيولوجية عن عالم الغرائز البشرية.

بالنّسبة لفرويد، هذا المُفكّر صاحب الإتّجاه الفلسفي المادّي، والمعادي للدّين بشدّة، يرى في الغريزة المنطقة السّائلة المنصهرة لـ"الأنا"، تلك الأرضَ الدّاخلية. الخلود ليس هو ما يريده الإنسان، وبنظر فرويد، ليست الحياة الرّوحية ما تصبو إليه الرّوح فوق كلّ اعتبار: الرُّوحُ فقط تَرْغَب، بغريزيّةٍ وبطريقة عمياء. الرّغبة العامة هي أوّل نَفَسٍ في كلّ حياة نَفْسِية. وكما يشتاق الجسد إلى الطّعام، تشتاق النّفس إلى اللّذة؛ الليبيدو، هذه الرّغبة البدائية في المُتعة، جُوعُ الرّوحِ النَّهِم هذا الذي لا يشبع، يدفعها نحو العالم. لكن - وهذا هو الاكتشاف الحقيقي لفرويد في مجال العلوم الجنسية - ليس لليبيدو في البدء أيّ هدف معيّن، والغاية منها فقط هي تخليص الغريزة. وبما أنّ الطّاقات النّفسية قابلة للتغيير دائمًا وفقًا لملاحظة فرويد الإبداعية، فبإمكانها توجيه طاقتها أحيانا إلى هذا الشّيء وأحيانا أخرى إلى ذاك.

لا تتجلّى الرّغبة إذن بطريقة ثابتة في بحث الرّجل عن المرأة وبحث المرأة عن الرّجل؛ هي فقط قوّة تبحث عن التّفريغ بشكلٍ أعمى، هي توتّر القوس الذي لم يعرف بعد أين يُصوِّب، واندفاعُ السّيل الجارف الذي لم يعرف بعد أين سيصب. تريد فقط الارتخاء، دون أن تعرف كيف. يمكنها التّجلّي والتّحرّر عن طريق أفعال جنسية عادية وطبيعية؛ كما يُمكنها أيضًا اكتساء الصّفة الرّوحية وتحقيق أشياء عظيمة في

الميدان الفنّي أو الدّيني. يمكنها أن تحيد وتضيع عبثيا، أو أن "تُثَبّت" فيما هو خارج عن الأعضاء التّناسلية على أشياء غير متوقّعة إطلاقًا، وعن طريق حوادث لا حصر لها، أن تُصرَف الغريزة الجنسية البدائية عن الفضاء الجسدي والمجال المادّي. بإمكانها تقمّص كلّ الأشكال، من الشّهوانية الحيوانية إلى أرقى اهتزازات الرّوح التي هي بدورها لا شكل لها ويستحيل فهمها، لكنّها تتدخّل في كلّ شيء. وفي كلّ الحالات، في إشباع الرّغبات الدُّنيا وفي أسمى التّحقيقات، تخلّص الإنسان من عطشه الأساسي والأولوي للمُتعة.

بسبب ما أحدثه فرويد من إعادة تقييم جذري، تغيّر مفهوم الاشكال الجنسية تمامًا. إلى غاية ذلك الحين، كان علم النّفس، وهو يجهل قابلية الطّاقات النّفسية للتّغيير، يخلط بين الجنس، وما يتعلّق بوظيفة الأعضاء التّناسلية؛ كان مشكل الجنس بالنّسبة للعلم يمثّل فحص وظائف العانة، والذي كان حينها شيئا قذرا ومُحرجًا. بفصل فكرة الجنس عن الفعل الجنسي، انتزعها فرويد في الوقت نفسه من الحيّز الضّيق الذي كانت به ومن غياب المصداقية الذي كان مرتبطا بها؛ وقد بدت مقولة نيتشه التّنبؤية: "درجة وطبيعة جنس الإنسان تتجلّى حتّى إلى غاية الذّروة الأعلى لعقله"، مثلَ حقيقيةٍ بيولوجية. وبمساعدة عدد لا يحصى من الأمثلة، يثبت كيف أنّ الليبيدو، أقوى توتّر عند الانسان، ومن خلالِ انتقال غامضٍ عبر السّنين والعقود،

تنفجر على شكل مظاهر نفسية غير متوقعة البتّة، وكيف أنّ طبيعة الليبيدو المتفرّدة لا تكفّ تؤكّد ذاتها من خلال تحوّلات وانحرافات وتخفٍّ لا حصر له، في أشكالِ رغبةٍ وأفعالٍ بديلة هي الأكثر تفرّدا. عندما يجد نفسه أمام حالة نفسية غريبة، اكتئاب، عُصاب، سلوك قهري، يمكن للطّبيب أن يستنتج بكلّ وثوق أنّ هنالك شيئا غريبا أو غير طبيعي في مصير مريضه الجنسي؛ وعندها، وحسب منهج التّحليل النّفسي، يعود له أن يرجع بالمريض إلى موضع التّجربة التي أدّت إلى انحراف المسار السّوي للغريزة في حياته السّابقة.

جعله هذا النّوع من التّشخيص يكتشف مباشرة اكتشافا غير متوقّع. فقد أظهرت له أولى جلسات التّحليل بالفعل أنّ التّجارب الجنسية التي تُحدِث الاضطراب عند مريض العُصاب غائرةٌ في القدم، وما أكثرُ طبيعيةً إذن من البحث عنها في شباب الفرد، في وقتِ تكوين الرّوح؛ إذ يبقى بالنّسبة لكلّ إنسان العُنصرَ غير القابل للمحو، والذي سيقرِّرُ مصيرَه هو ما يُحفَر خلال عملية النّمو الشّخصية على اللّوحة التي لا تزال ليّنة، وبذلك هي مُتقبِلة للوعي خلال تأسيسه. يقول جوته: "لا ينبغي لأيٍّ كان أن يظنّ نفسه قادرا على التّملص من أولى انطباعات شبابه".

في كلّ حالةٍ تعيّن عليه تشخيصها، يتراجع فرويد مُتحسّسا إلى غاية مرحلة البلوغ- فلم تبد له آنذاك مرحلةٌ أقدم من ذلك جديرةً

بالدّراسة: إذ كيف بإمكان الانطباعات الجنسية أن تتكوّن قبل القُدرات الجنسية نفسها؟ اعتبر حينها من السّخف فكرة مُتابعة الحياة الجنسية الغريزية أبعد من ذلك الحدّ، إلى غاية الطّفولة، والتي لا ينبئ فيها ذلك اللاوعي السّعيد بالتّوتر واندفاع النّسغ خارجًا. توقفت إذن أولى أبحاث فرويد عند سن البلوغ.

لكن سريعا، وأمام بعض الاعترافات الغريبة، لم يستطع فرويد إنكار أنّ التّحليل النّفسي عند عدد معتبر من مرضاه يُبرز بوضوح لا يقبل الجدل ذكرياتٍ تتعلّق بأحداث جنسية أقدم بكثير من ذلك، بل "ما قبل تاريخية" إن جاز التّعبير. تدفعه اعترافات بعض مرضاه الشّديدة الوضوح إلى الشّك في أنّه لا بدّ وأن تحتوي بالفعل الفترة التي تسبق سنّ البلوغ، أي الطّفولة، على الغريزة الجنسية، أو على نوعٍ من تجليّاتها.

ويزداد هذا الشك إلحاحًا مع تقدّم أبحاثه. يتذكّر فرويد ما تذكره المُربية، وما يتحدّث عنه معلّمو المدارس بخصوص المظاهر المُبكرة للفضول الجنسي، وفجأة، يوضّح اكتشافه الخاص حول الفارق الموجود بين الحياة النّفسية الواعية واللّاواعية الموقفَ له. يُدرك فرويد أن الوعي الجنسي لا يتسرّب فجأة إلى الجسد عند سنّ البلوغ – لو كان الأمر كذلك، فمن أين أتى؟ – بل عبّر عنه بمرونة رائعة وببراعة استعماله للّغة، هو الطّبيب النّفسي بألف طبيبٍ نفسي، واستنتج

إذن أنّ الوعي الجنسي "يستيقظ" عند الكائن خلال مرحلة تكوّنه ونضجه، وبهذا فقد كان موجودًا منذ وقت طويل في جسد الطّفل، لكن نائما (بمعنى كامن). مثلما يمتلك الطّفل في ساقيه القُدرةَ على المشي قبل حتّى أن يتمكّن من المشي، والرّغبة في التّكلم حتّى قبل أن يستطيع ذلك، الحياة الجنسية إذن -وبطبيعة الحال دون أدنى دلالة على نشاط فعّال- جاهزةٌ منذ فترة طويلة. -الصّيغة هنا حاسمة- يعرف الطّفل حياته الجنسية. فقط، هو لا يفهمها.

أنا هنا أخمّن بدل أن أجزم، لكنّي أفترض أنّه وفي اللّحظة الأولى، لابد وأنّ فرويد قد أصيب بالذّعر من اكتشافه؛ لأنّه يقلب المفاهيم الأكثر شيوعًا بطريقة تكاد تكون تجديفية. لو أنّ إثبات- أو كما يقول الآخرون- مبالغة، الأهميّة النّفسية التي يلعبها الجانب الجنسي في حياة البالغين، وحده أمر جريء، فأيُّ تحدٍّ لأخلاق المجتمع يُعتبَر هذا المفهوم المُقّزز: الرّغبة في اكتشاف آثارٍ للعاطفة الجنسية عند الطّفل، ذاك الكائن الذي تربطه البشرية جمعاء بفكرة النّقاء والطّهر المطلق. كيف لهذه الحياة المُبتسمة، المتبرعمة بلطف وحنان، أن تعرف الرّغبة الجنسية. أو على الأقلّ تحلم بها! تبدو هذه الفكرة أوّل الأمر سخيفة، مجنونة، فاحشة، بل وحتّى مُعادية للمنطق، فبما أنّ أعضاء الطّفل غير قادرة على التّكاثر، يجب أن تلي هذه العبارة الرّهيبة: "لو انّ للطّفل حياةً جنسية، فلا يُمكنها إلّا أن تكون منحرفة". كان التّعبير

عن شيء مماثل في العام ١٩٠٠ بمثابة انتحار علمي.

وبالرّغم من ذلك، عبّر عنه فرويد. ففي كلّ مكان يحسّ فيه هذا المُنقِّب العنيد بوجود أرضية صلبة، يغرس فيها مثقابه بكامل قوّته. واكتشف، مندهشا جدّا، في أكثر الأشياء لاوعيا عند الإنسان والمُتمثّلة في الرّضيع، الصّورة الأكثر تميزًا للشّكل الأصلي البدائي والشّامل لغريزة المتعة. وتحديدا لأنّه لا وجود هنا بالذّات، في مطلع الحياة، لأدنى بصيص وعي أخلاقي، يكشف له نزوله في عالم الغرائز غير المحظور لهذا الكائن الصّغير جدّا المعنى البدائي والمرن المتغيِّر للّيبيدو: وهو جذب المُتعة، وصدّ الاستياء.

يتطلّع هذا الحيوان البشري الصّغير إلى التّمتع بكلّ شيء، بجسده، وببيئته، وما يحيط به، بثدي الأم، بالإصبع وبإصبع القدم، بالخشب وبالقماش؛ باللّباس وبالجسد، دون كبحٍ، ثملٍ في الأحلام، يريد أن يدخل في جسده الصّغير الغضّ كلّ ما يُشعره بالمتعة والرّضا. في هذه المرحلة البدائية من المتعة، لا يميّز الكائن غير المكتمل-الطّفل- بعدُ بين "الأنا" و"الأنت"، وهو الشّيء الذي سيتعلّمه لاحقًا. هو لا يشعر بالحدود المادية أو الأخلاقية التي سترسمها له التّربية لاحقا: هو كائن فوضوي، مذعور، يسيطر عليه عطشٌ للرّضاعة لا يرتوي، يريد أن يجذب "الكون" داخلَ "أناه"، يحمل كلّ ما تستطيع أصابعه الصّغيرة الوصول إليه إلى مصدر المتعة الوحيد الذي يعرفه، فمه، الذي يرضع

(يصف فرويد هذه الفترة بالمرحلة الفمية).

يلعب ببراعة بأعضائه، وهو منحلّ بالكامل في رغبته المُتلعثمة والرّاضعة، رافضا في الوقت نفسه بغضب كلّ ما قد يزعج إشباعَه الحالم. فقط بداخل الرّضيع، في "ما لم يُصبِح بعدُ الأنا"، في "الهُوَ المبهَم" يمكن لهذه الليبيدو الشّاملة أن تطلق العنان لنفسها بلا هدف وبلا وسيط. هنا، لا يزال "الأنا" اللاواعي يرضع بنهم كلّ السّعادة من أثداء الكون.

لكن لا تدوم مرحلة الشّهوة الذّاتية هذه طويلا. سيتعلّم الطّفل سريعا أنّ لجسده حدودًا: ويضيئ نورٌ صغير في العقل الصّغير جدّا، ليبدأ تمايزٌ بين الخارج والدّاخل. لأوّل مرّة يجرّب الطّفل مقاومات العالم، ويتعيّن عليه أن يرى أنّ هذا العُنصر الخارجي هو قوّة نخضع لها. وسريعا ما سيعلّمه العقاب قانونا مؤلما، وغير معقول بالنّسبة له، ذاك الذي لا يسمح له بالتّمتع اللّامحدود بكلّ الموارد: يُمنع من الظّهور عاريا، أن يلمس برازه وأن يتمتّع بذلك، يجبر بلا رحمة على التّخلي عن وحدة الإحساس اللّاأخلاقية، وأن يعتبر بعض الأشياء كمسموح بها، وأخرى ممنوعة. بداخل هذا الكائن المتوحّش الصّغير، يبدأ مُشترط الثّقافة في بناء وعي اجتماعي وجمالي، أداةُ تحكّم يمكنه بمساعدتها تصنيف أفعاله إلى مجموعتين: الجيّدة، والسيّئة. وفي اللحظة التي يستوعب فيها هذا التّمييز، يُطرَد آدم الصّغير من

فردوس اللّامسؤولية.

في الوقت نفسه، يُؤكّد من الدّاخل تراجعً لغريزة المتعة، يُفسح المجال، عند الطّفل خلال نموّه للميول الجديد المتمثّل في اكتشاف الذّات. من "الهو"، الغريزي المفتقد للوعي، يخرج "الأنا"، ويمثّل اكتشاف الأنا بالنّسبة لعقل الطّفل توتّرا وانشغالا بطريقة تجعل غريزة المتعة ذات التّجليات البدائية المذعورة تُهمَل، ولا تبرز إلّا عند الاستمتاع. حالة الانشغال بالذّات هذه لا تضيع كليّا من ذاكرة الإنسان الرّاشد، بل حتّى تبقى عند البعض على شكل نزعة نرجسية، وميولٍ أنانيٍّ خطير للانشغال بالذّات حصريا، ورفض كلّ رابط عاطفي مع الكون. تنغلق غريزة المتعة التي تُظهِر عند الرّضيع هيئتَها الأصلية والعالمية، وتصبح غير مرئيّة عند البالغ. بين شكل المتعة الذّاتية والمتعة الشّمولية عند الرّضيع، والشّهوة الجنسية في مرحلة المراهقة، يحلّ سباتٌ شتوي للعواطف، حالةُ شفقٍ تستعدّ خلالها الطّاقات والنّسغ للتّحرّر.

عندما تستيقظ الغريزة الخامدة شيئا فشيئا في هذه المرحلة الثّانية، مرحلة البلوغ التي تُلوَّن من جديد بالجنس، وعندما تتوجّه الليبيدو مجدّدا نحو العالم، عندما تبحث من جديد عن "تركيز الطاقة النّفسية"، "Cathexis" يُمكنَها أن تُحوّل إليه توتّرها العاطفي -وفي هذه المرحلة الحاسمة، تُشير إرادة الطّبيعة البيولوجية بقوّة إلى المُبتدِئ إلى طرق التّناسل الطّبيعية. تبيّن تحوّلات صارخة في

جسد الشّاب، والفتاة المقبلة على الزّواج، في مرحلة البلوغ، أنّ للطّبيعة هدف.

وتقود هذه الإشارات مباشرة إلى منطقة الأعضاء التّناسلية. من خلال قيامها بذلك، فهي تُظهر المسار الذي تريد الطّبيعة من الإنسان أن يسلكه من أجل خدمة هدفها السرّي والأبدي: الإنجاب. لا ينبغي لليبيدو، مثلما كان حال الرّضيع في الماضي، أن تستمع بذاتها وهي تتسلّى، بل أن تخضع، بشكلٍ مُفيد، لخطّة العالم غير المفهومة، والتي تتحقّق في التّناسل. إذا فهم الفرد هذا التّلميح الآمر للطّبيعة وخضع له، -لو أنّ الرّجل ارتبط بالمرأة والمرأة بالرّجل لإتمام وظيفة الجنس التّكاثرية - لو أنّه نسي كلّ الاحتمالات الأخرى للمتعة السّابقة، فإنّ تطوّره الجنسي قد اتّبع مسارًا صحيحًا ومُنتظما، وبذلك تتجسّد طاقاته في مساراتها الطّبيعية العادية.

يُحدّد هذا "الإيقاع ذي وزنين" تطوّر كلّ الحياة الجنسية البشرية، وعند الملايين والملايين من البشر تطابق غريزة المتعة دون توتّر هذا المسار المُنتظم: المُتعة الشّمولية واستمتاعٌ بالذّات لدى الطفل، والحاجة للتّناسل عند البالغين. غنيّ عن البيان أنّ الكائن الطّبيعي يخدم ببساطة رائعة أهدافَ الطّبيعة التّي تريد رؤيته يُطيع حصريًا قوانين التّكاثر الميتافيزيقية. لكن في حالات فردية، نادرةٍ نسبيًا - الحالات التي تهمّ الطّبيب النّفسي على وجه التحديد - ندرك أنّ

اضطرابا مُضرّا جاء ليعيق الانتظام السّليم لهذه العملية.

لا يستطيع العديد من البشر، لأسباب تخصّ كلّ واحد على حدة، التّقرير ليوجّهوا كليّا غرائز المتعة إلى الأشكال التي توصي بها الطّبيعة؛ تسعى الليبيدو، الطّاقة الجنسية، لديهم، لأن تتلاشى في الشّهوانية سالكةً اتّجاهًا آخر مختلفًا عن الطّبيعي. عند مرضى العُصاب والمختلّين، وكنتيجة اختلال في مسار حياتهم، يتّجه الميول الجنسي في الطّريق الخطأ الذي لا يمكنه الخروج منه. من وجهة نظر فرويد، ليس المنحرفون أشخاصًا تحكمهم الوراثة، ليسوا مرضى، وخاصّة ليسوا مجرمين؛ أغلبهم رجال يتذكّرون بوضوح مصيري شديد أشكال تمحور وتشكّل نوع من متعتهم في المرحلة ما قبل-التّناسلية، تجربة إيروتيكية، وبينما يتحكّم فيهم هاجس التّكرار المأساوي، هم عاجزون عن البحث عن المتعة في غير ذلك الاتجاه. وهكذا، نرى في حياة هؤلاء البالغين البؤساء بمنتصف العمر، ونتيجة لذلك الإكراه على التّذكر، أصحاب الرّغبات الطّفولية الذين لا يجدون مُتعة في النّشاط الجنسي الطّبيعي الذي يعتبره المجتمع شيئًا مفروغا منه، طبيعيًا وعاديا، وهم يريدون بلا هوادة أن يكرّروا عيش ذلك الحادث الجنسي (الذي سقط عند معظمهم في اللّاوعي)، ويبحثون في الحقيقة عن بديل لتلك الذّكرى.

كشف لنا "جان جاك روسو" في سيرته الذّاتية الصّريحة جدّا

عن حالةٍ نموذجية لانحرافٍ من هذا النّوع، والذي نتج عن تجربة في طفولته. كانت مُعلّمته شديدة القسوة –والتي كان يحبّها سرّا– غالبا ما تجلده وبقسوة؛ ومع اندهاش الطّفل، منحته تلك العقوبة القاسية التي فرضتها عليه مُعلّمته متعةً شديدة الوضوح ولا لبس عليها. في الحالة الكامنة (التي عرّفها فرويد بشكلٍ مُثيرٍ للإعجاب) ينسى "روسو" هذه المّشاهد تمامًا، لكنّ جسده، روحه ولا وعيه لا ينسون. ومثلما، لاحقا، سيسعى الرّجل البالغ لإرضاء شهوته في العلاقات الخاصّة مع النّساء، لن يتمكّن أبدًا من أداء الفعل الجسدي.

وكي يتمكّن من أن يتحدّ مع المرأة، على هذه الأخيرة أن تُكرِّر ذلك الجَلْد التّاريخي، وهكذا دفع جان جاك طيلة حياته ثمن الاستيقاظ المبكر المشؤوم والعبثي لعاطفته الجنسية بمازوشيةٍ لا شفاءَ منها، تُرجِعه دائما، رغم ثورته الدّاخلية وتمرّده، إلى هذا النّوع الوحيد من المتعة المتاح له. ليس المنحرفون (ويصنف فرويد تحت هذا المصطلح كلّ السّاعين إلى المتعة بطرق أخرى غير تلك التي تخدم التّناسل) لا مرضى، ولا أصحاب طبع فوضوي بعناد، يتمرّدون بوعي وبجرأة على القوانين العامة، بل هم سجناء رغما عنهم، مقيّدون بتجربة في طفولتهم المبكرة، متخلّفون في الطّفولة، أشخاصٌ تصنع منهم رغبتهم العنيفة في التّغلب على غرائزهم المُضَلّة مرضى عُصاب وذُهان. إذ لا يمكن لا للسّلطة القضائية التي تفرق المريض بتهديدها أكثر في

صراعه الدّاخلي، ولا للأخلاق التي تدعو إلى "التّعقّل"، تحريره من هذا النّير؛ ولهذا السّبب على معالِج الرّوح أن يجعله يفهم بتعاطف واعٍ، التّجربةَ البدائية. فوحده الفهم الذّاتي للصّراع الدّاخلي -وهذه هي بديهية فرويد في هذا الاتّجاه النّفسي- بإمكانه النّجاح في محوه: ليُشفى المرء، عليه أوّلا أن يفهم معنى مرضه.

وعليه، ووفقًا لفرويد، فكل اختلال في التّوازن النّفسي ينتج من تجربة شخصية، جنسية في الغالب، وحتّى ما نطلق عليه اسم الطّبيعة، أو الوراثة، لا تمثّل سوى التّجارب التي عاشتها من قبل أجيال سابقة وتشرّبتها الأعصاب؛ وبالتّالي، فإن التّجربة؛ هي للتّحليل النّفسي، العامل الأساس في تكوين الرّوح؛ ويسعى لفهم كلّ فرد على حدة من خلال ماضيه. بالنّسبة لفرويد، لا وجود لعلم نفسي ولا لمرضٍ إلّا على الصّعيد الفردي: ولا يجب اعتبار أيّ شيء في حياة الرّوح كقاعدة أو مخطّط مسبق؛ يجب في كلّ مرّة اكتشاف المعطيات الأوّلية التي تكون دائما متفرّدة.

ويبقى صحيحا أنّ معظم التّجارب الجنسية المبكرة، مع احتفاظها بالفوارق الشّخصية، تظهر في الآن ذاته نوعا من التّشابه النّموذجي؛ وتمامًا مثلما يحلم عدد لا يحصى من الأفراد بالأشكال ذاتها من الحلم (حلم الرّحلة، وحلم الامتحان، وحلم المطاردة)، يعتقد فرويد أنه يتعرّف في التّجربة الجنسية المبكرة على بعض السّلوكيات العاطفية

النّموذجية، والتي تكاد تكون إلزامية قهرية، وسعى بحماس للبحث عن هذه الفئات وتصنيفها، "العقد". أشهر هذه العقد - والأكثر تشويهًا أيضًا – هي العقدة المسمّاة "عقدة أوديب"، والتي يقدّمها فرويد كواحدة من الرّكائز الأساسية لصرح التّحليل النّفسي (أمّا بالنّسبة لي، فلا يبدو لي كونها أكثر من دعامة يمكن الاستغناء عنها بأمان بعد الانتهاء من تشييد هذا الصّرح).

لكن اكتسبت هذه العقدة منذ ذلك الحين شعبية بائسة لدرجة لا داعي لشرحها بالتّفصيل: يفترض فرويد أن الموقف العاطفي المصيري الذي يتحقّق بطريقة مأساوية في أسطورة أوديب اليونانية، والتي يقتل فيها الابن الأب ويتملّك الأم -أنّ هذه الوضعية، التي تبدو لنا بربرية، لا زالت تتواجد على شكل رغبة بداخل كلّ روحٍ طفولية، إذ أنّ -وهذه أكثر فرضيّات فرويد محلّا للجدل- أوّل عاطفة جنسية للطّفل تتوجّه دائما للأم، وأوّل نزعة عدوانية تتوجّه للأب. يظن فرويد أنّ بإمكانه -من خلال متوازي أضلاع قوى الحبّ للأم والكره للأب هذا- أن يثبت أنّ ذلك هو أوّل تجمّع طبيعي إلزامي لا مفرّ منه لكلّ حياة نفسية طفولية، وإلى جانبه، يضع سلسلةً من مشاعرٍ لاواعية أخرى، مثل عقدة الخصاء، والرّغبة في سفاح القربى... الخ-كلّ المشاعر التي جُسّدت في أساطير البشرية الأولى.

(فوفقًا لمفهوم فرويد الثّقافي والبيولوجي، ليست خرافات الشّعوب

وأساطيرها إلّا أحلامًا -رغباتًا طفوليةً تمّ "التّنفيس" عنها).

وبهذا، فكلّ ما رفضته البشرية منذ زمن طويل على كونه مُنافيا للثّقافة، من متعة القتل، والسّفاح، والاغتصاب، وكلّ ضلالات الزّمن الغابر المظلمة للقطعان، كلّ هذا لا يزال يغلي في رغبات الطّفولة-هذه الفترة الماقبل تاريخية لحياة الرّوح البشرية-: يجدّد كلّ فرد رمزيا في تطوّره الأخلاقي تاريخَ الحضارة بأكمله. نحمل في دمائنا، بطريقة غير مرئية لأنّها لاواعية، الغرائز البربرية القديمة، ولا توجد أيّ ثقافة تحمي بصفة كاملة الإنسان من ومضات البرق المفاجئة لهذه الرّغبات الدّخيلة عليه؛ تجرفنا تيّارات غامضة للاوعينا دائما وأبدا إلى تلك الأزمنة البدائية التي لا قانون فيها ولا أخلاق ولا عرف.

حتّى وإن وظّفنا كلّ طاقتنا لإبعاد عالم الغرائز هذا عن نشاطنا الواعي، لا يمكننا، في أحسن الأحوال إلّا أن نعدّله كي يتماشى مع المفهوم الأخلاقي والرّوحي، دون أن نتمكّن أبدًا من فصل أنفسنا عنه تمامًا.

بسبب هذا المفهوم المفترض كونه "مُعاديا للحضارة"، والذي يَعتَبِر مجهود البشرية منذ آلاف السّنين للسّيطرة الكاملة على الغرائز نوعا ما من العبث، ويؤكّد باستمرارِ قوّة الليبيدو التي لا تقهر، وصف معارضو فرويد مذهبه الجنسي بالشّمولية الجنسية (pansexualism). واتهموه بصفته عالما نفسيا بالمبالغة في

تقدير الغريزة الجنسية بمنحها كلّ هذا القدر من التّأثير الغالب على حياتنا النّفسية، وبالمبالغة بصفته طبيبًا، لأنّه يُرجِع كلّ اختلال في توازن الرّوح حصريا إلى نقطة الانطلاق تلك، وأيضا الانطلاق منه حصريا للتّوجه نحو الشّفاء. حسب رأيي الشّخصي، يختلط في هذا الاعتراض الصّواب مع الخطأ بشكل غير واضح. في الواقع، لم يُقدّم فرويد أبدًا مبدأ المُتعة على كونه القوّة النّفسية الوحيدة الدّافعة في العالم. فهو يعلم جيّدا أنّ كلّ توتر، كلّ حركة -وهل الحياة غير ذلك؟- لا تنبثق إلّا من البوليموس، الصّراع.

ولهذا السّبب، ومنذ البداية، فقد عارض نظريًّا للّيبيدو، الغريزة الجاذبة المتمحورة على ذاتها التي تريد تجاوز "الأنا"، غريزةً أخرى، والتي أسماها في البدء "غريزة الأنا"، ثمّ الغريزة العدوانية، ثمّ أخيرا "غريزة الموت" التي تدفع إلى الانقراض بدل التّناسل، إلى التّدمير بدل الإبداع، وإلى العدم بدل الحياة. لكن - ومن هذا المنظور وحده، لا يُعدّ خصومه مخطئين تمامًا - لم ينجح فرويد في تمثيل هذه الغريزة المُضادّة بذات الوضوح، وبقوّة مُقنعة مثلما كان الحال مع الغريزة الجنسية: ظلّ عالمُ غرائزِ ما يُسمّى "الأنا"، في صورته الفلسفية عن الكون غامضًا إلى حدٍّ ما، لأنّه وفي الحالات التي لا يُدرِك فيها فرويد بوضوحٍ مُطلق، أي عندما يتعلّق الأمر بمجال التّخمين البحت، يخونه العنصر المرن لموهبته، وقدرته على التّحديد. وبالتالي، فربّما

يُهيمن على عمله وطريقته العلاجية قدرٌ مُعيّن من المُبالغة في تقدير دور الجنس، لكن هذه المبالغة جاءت كنتيجة تاريخية للاستخفاف والتّقليل المنهج لأهميّة الجنس من قبل الآخرين طيلة عقود من الزّمن. كان من الضّروري المبالغة كي يغزو ذلك الفكر الحقبة؛ وبكسر حاجز الصّمت بقوّة، فتح فرويد المجال للنّقاش.

في الواقع، لم تشكّل هذه المبالغة التي عورضت بشدّة للجانب الجنسي أبدًا الخطر الحقيقي، وكلّ ما كان يتضمّنه من جوانب شائنة قد صُحّح من قبل المُنظّم الأبدي للقيم جميعها: ألا وهو الوقت. الآن، وقد مرّت خمس وعشرون سنة على بداية أطروحات فرويد، يمكن لأكثر النّاس خوفا أن يطمئن: بفضل معرفتنا الجديدة، الأكثر صحّة والتي صارت علمية بشكل أكبر للمشكلة الجنسية، لم يصبح العالم في أيّ حال من الأحوال أكثر جنسية، أكثر إيروتيكية، أو مُنحلًا أخلاقيا؛ على العكس، كلّ ما قام به مذهب فرويد هو استعادة قيمة نفسية فُقِدت بسبب حياء الجيل السّابق: حيادية الرّوح أمام كلّ ما هو جسدي. وهكذا، تعلّم جيل جديد – وقد بدأ تدريس ذلك بالفعل في الجامعات والمدارس – عدم تفادي القرارات الدّاخلية، وعدم إخفاء أكثر المشاكل حميمية، وشخصية، بل وعلى العكس، التّيقظ والوعي بوضوح تام لخطر وغموض الأزمات الدّاخلية.

تعادل كلّ معرفة للذّات في حدّ ذاتها تحريرا للذّات، ودون أدنى

شك، ستثبت الأخلاق الجنسية الجديدة، الأكثر تحرّرا، في المستقبل أنّها رفقة خلّاقة للجنسين، على العكس من القيم القديمة المصنوعة بالكامل من الإخفاء، والتّي عجّل فرويد بجرأته واستقلالية فكره باختفائها إلى الأبد – وتعود له الجدارة في هذا المجال دون منازع -. دائما ما يدين جيل بحريّته الخارجية للحريّة الدّاخلية لفرد واحد، وكلّ علم جديد في حاجة لمن يبدأه لجعله قابلًا لإدراك بقيّة البشر.

«تتحوّل كل رؤيةٍ إلى تأمّل، وكلّ تأمّل إلى تفكير، وكلّ تفكير إلى حلقة وصل، وبهذا يستطيع المرء القول، أنّنا وفي كلّ مرة نلقي فيها على العالم بنظرة يقِظة، نحنُ نُنَظِّر»

جوته

نظرةٌ إلى الأفق عند الشّفق

الخريف هو الوقت المُبارك للتّأمل. الثّمار قُطفت، والأعمال انتهت: صافيَيْن ونقيّين، يضيء كلّ من السّماء والأفق البعيد مشهدَ الحياة. عندما يلقي فرويد، وهو بسنّ السّبعين، لأوّل مرّة بنظرةٍ خلفه إلى ماضي عمله الذي أنجزه، فهو يستغرب بلا شكّ من المدى الذي قاده إليه مساره الإبداعي الخلّاق.

يدرس طبيب أعصابٍ شاب أسباب الهستيريا. وبأسرع ممّا يتصوّر، تكشف له هذه الإشكالية هاويتها السّحيقة. لكن هناك، في تلك الأعماق، تواجهه مشكلة جديدة: اللّاوعي. ويتفحّصه، ليتوضّح له أنّه عبارة عن مرآة سحرية. أيًّا كان الشّيء الرّوحي الذي يعكس بضوءه عليه، فهو ينيره أيضًا بمعنى جديد. مُسلّحا بموهبة وقدرة على التّفسير لا تضاهى، يقوده بغموض نداءٌ داخلي، يتقدّم فرويد من اكتشاف لآخر، ومن نظرة روحية لأخرى، أوسع وأسمى-- una parte nasce dall'altra (ينشأ جزءٌ من الآخر)، حسب كلمات ليوناردو دافنشي – وتتسلسل كلّ هذه الاكتشافات، وتتداخل حلقات بشكل طبيعي لتُشكّل صورة شاملة للعالم النّفسي. منذ فترة طويلة تمّ

تجاوز مجالات علم الأعصاب، والتّحليل النّفسي، وتفسير الأحلام، والجنس، لتظهر على الدّوام علوم جديدة لا رغبة لها غير التّجدّد. تَدين العلوم التّربوية، والأديان، والأساطير، والشّعر والفن لإلهام العالم المُسنّ بإثراءٍ مُهم: وهو يعتلي درجات عمره الكبير، بالكاد يستطيع بصره الوصول إلى المدى المستقبلي الذي بلغته قوّة نشاطه غير المتوقّعة. مثل موسى من قمّة الجبل، لا يزال فرويد يكتشف عند مغيب شمس حياته، فضاءً سرمديا من الأراضي غير المزروعة التي يمكنه تخصيبها بعقيدته.

طوال خمسين عامًا، اتّبع مسارَ الكفاح بلا خوفٍ، صائدُ ألغازٍ وباحثٌ عن الحقائق، غنيمته لا تُقدّر. إلى أيّ مدى توقّع، وشعر، ورأى وأبدع وابتكر! من باستطاعته بالفعل إحصاء كلّ نشاطاته في مجالات الرّوح؟ بوسعه الآن أن يستريح، ذلك الرّجل العجوز. في الحقيقة، هو يشعر بداخله بالحاجة للنّظر إلى الأشياء من منظور ألطف، وأكثر تساهلاً. نظره الذي تغلغل، قاسيا ومُدقّقا في الكثير من الأرواح القاتمة، يودّ الآن أن يحتضن بحريّة صورةَ الكون بأكملها، في نوع من الحلم الرّوحي. ذاك الذي طالما حرث الأعماق، يودّ الآن أن يتأمّل في قمم وسهول الوجود. ذاك الذي بحث واستدبر بصفته عالم نفس طوال حياته، سيحاول الآن أن يمنح لنفسه إجابةً بصفته فيلسوفًا. سيجرؤ الآن صاحب تحليلات الأفراد التي لا تعدّ ولا تحصى ذاك على

التّعمق في معنى المجتمع، ويريد أن يختبر فنّه التّفسيري من خلال تحليلٍ للحقبة.

ليس جديدا عليه هذا الاغراء في رؤية اللّغز الكوني بصفته مفكّرا حصريا، أو أن يصنع منه رؤية نقية للرّوح. لكنّ صرامةَ مُهمّته منعت فرويد، طيلة حياته، من الميولات المُضاربة التّأملية؛ توجّب على قوانين التّكوين النّفسي أوّلا أن تُجرّب على عددٍ لا يحصى من الأفراد قبل أن يجرؤ على تطبيقها بشكل مُعَمّم. بدا له دائما، هو الرّجل الدّائم الادراك لمدى مسؤوليته، أنّ الوقت لم يكن قد حان بعد. ولكن الآن، وبعد أن منحته خمسون عامًا من العمل الذي لا يعرف الكلل الحقَّ في تجاوز الفرد في "الحلم-الفكرة"، ها هو ذا يخرج ليلقي بنظرة إلى الأفق، وليطبّق على البشرية جمعاء الطّريقةَ المُجرَّبة على آلاف البشر.

يباشر الأستاذ الدائم الوثوق بنفسه هذا المشروع ببعضٍ من الخوف، وبعضٍ من التّردد. قد يغري المرء القول أنّه يترك آسِفًا مجالَه العلمي الدّقيق للحقائق، لصالح مجالٍ لا يُمكن إثباته. فهو يعلم، هو الذي كشف أقتعة العديد من الأوهام، مدى سهولة الاستسلام والوقوع في تلك الأحلام الفلسفية. حتّى الآن، رفض بشدّة كلّ تعميم تخميني: "أنا ضدّ صنع المفاهيم التّعميمية". لم يتّجه إذن، بقلب سعيدٍ، وبالثّقة القديمة التي لا تُزَعْزَع إلى الميتافيزيقيا - أو، كما يسمّيه بحذر، علم

النّفس الميتافيزيقي. ويبدو أنّه يبرّر لنفسه أمام هذا المشروع المتأخّر: "طرأ نوع من التّغيير الذي لا يمكنني انكار عواقبه على ظروف عملي. في السّابق، لم أكن أحد أولئك الذين لا يعرفون كيفية الإبقاء على شيء يظنّونه اكتشافا سرّا إلى حين يتمّ تأكيده... لكن حينها امتدّ الوقت أمامي، محيطات من الوقت - oceans of time، على مقولة شاعر لطيف – وتدفّقت عليّ الخامات بكثرة لدرجة أنّي بالكاد أستطيع تجريب كلّ ما عُرض علي ... والآن، تغيّر كلّ هذا. الوقت أمامي محدود، وهو ليس تماما مليئًا بالعمل، وفرص الحصول على تجارب جديدة لا تتضاعف كثيرا. عندما أعتقد أنّي أرى شيئا جديدًا، لم أعد مُتأكّدا من استطاعتي انتظارَ الدّلائل". نرى ذلك بوضوح: يعلم هذا الرّجل العِلمي الدّقيق مُسبقا ما نوع المشاكل المعقّدة التي سيطرحها. في نوع من المونولوج الرّوحي، وحوارٍ فكري مع نفسه، يفحص بعض الأسئلة التي تثقل كاهله دون أن يشترط إجابة، دون إعطاء إجابةٍ كاملة. لم يكن الكتابان اللذان أُلّفا في وقت متأخّر، "مستقبل وهم- Die Zukunft einer Illusion -"، و"قلق في الحضارة- Das Unbehagen in der Kultur -" غنيّيْن وكثيفين كما سبقهما من مؤلّفات؛ لكنّهما أكثر شاعرية. ويحتويان على كميّة أقلّ من العلم الممكن تأكيده، لكنّهما احتويا حكمة أكبر. بدلًا مِن المُشرِّح الذي لا يعرف الرّحمة، ينكشف أخيرا المفكّر الشّمولي

بدل طبيب مختصّ في علم طبيعيّ دقيق، الفنّان المتوقع تجلّيه بداخله منذ زمن. وكأنّه، ولأوّل مرّة، وراء النّظرة الثّاقبة المتفحّصة، يظهر الإنسان المُختبئ لفترة طويلة، سيغموند فرويد.

لكنّ هذه النّظرة التي تتأمّل البشرية قاتمة؛ وقد أصبحَ هو نفسه قاتما على هذا النّحو لأنّه رأى عديد الأشياء القاتمة؛ دون انقطاع، وطيلة خمسين سنة، لم يُرِ البشر فرويد غير مشاكلهم، بؤسهم، عذابهم، واضطراباتهم التي تارة تكون صارخة متسائلة، وتارة منفعلة غاضبة هستيرية، شرسة؛ لم يتعامل أبدًا مع غير المرضى، ضحايا، مهووسون، مجانين، ظهر فقط الجانب الحزين البائس والخامل من الإنسانية لهذا الرّجل طيلة حياة بأسرها، بلا هوادة. دائم الانغماس في عمله، نادرا ما لمح الوجهَ الآخر للبشرية، هادئًا، مبتهجًا، واثقًا آمنا، الجُزء المكوّن من بشرٍ كرماء، مُبتهجين، لا مبالين، مرحين، فرحين، أصحّاء، سعداء: لم يلتق سوى بالمرضى، بالمكتئبين، والمختلّين، لا شيء غير نفوسٍ قاتمة. ظلّ سيغموند فرويد في قرارة كيانه طبيبًا لفترة طويلة جدّا كي لا يتمكّن تدريجيا من الوصول إلى نتيجة اعتبار البشرية جمعاء جِسمًا مريضًا. فقد كان انطباعه الأوّل، في اللحظة التي ألقى بنظرة على العالم من عيادة عمله، قد استبق كلّ أبحاثه القادمة بتشخيصٍ رهيبِ التّشاؤم: "على البشرية جمعاء، كما هو الحال بالنّسبة لكلّ فرد، يصعب تحمّل الحياة".

كلمة رهيبة قاتمة تترك حيّزا ضئيلا للأمل، تنهيدة تصعد من الأعماق أكثر من كونها إدراكا مُكتسبا. نُدرك أنّ فرويد يقترب من مُهمّته الثّقافية والبيولوجية كما لو أنّه كان يتقدّم نحو سريرِ مريض. وهو متعوّد على الفحص في مجال طبّ الأعصاب، يعتقد بوضوح أنّه يلمح في حقبتنا أعراضَ اختلالِ توازنٍ نفسي. وبما أنّ السّعادة شيء غريب عن نظره، لا يرى في حضارتنا غير القلق وعدم الارتياح، وراح يحلّل عُصاب روحِ هذا العصر. تساءل، كيف يُمكن أن يحيي حضارتنا هذا الكمّ الضّئيل من الرّضا الحقيقي، هذه الحضارة التي رفعت رغم ذلك الإنسانية فوق كلّ توقّعات وآمال الأجيال السّابقة؟ ألم نتجاوز بداخلنا ألف مرّة آدم القديم، ألم نعد بالفعل نُشبه الرّب حتّى أكثر منه؟

ألم تعد تسمع الأذن، بفضل غشاء الهاتف، أصوات أبعد القارّات، ألا تراقب العين، بفضل التّلسكوب، الكون بالعدد الذي لا يُحصى من النجوم، وبفضل المجهر، ألا ترى الكونَ في قطرةِ ماء؟ ألا يطير صوتُنا في ثانية المكان والزّمان، ساخرًا من الأبدية، وهو مُثبّت على أسطوانة الفونوغراف؛ ألا تحملنا الطائرة بأمان عبر العُنصر الذي مُنِع على البَشر لآلاف السّنين؟ لماذا لا تُطمئِن ولا تُرضي هذه الاكتشافات بداخلنا ذاك الأنا الحميم؟ لماذا، رغم هذا التّشابه مع الرّب، لا تحسّ روح الإنسان بسعادة الانتصار الحقيقية، بل فقط بالشّعور القامع

بأنّنا فقط نستعير هذه الرّوائع العظيمة، وبأنّنا ما نحن سوى آلهة "بأطراف اصطناعية"؟ (كلمة جذابة!). ما هو أصل هذا التّثبيط، هذا الخلل، جذور مرض الرّوح هذا؟ يتساءل فرويد متأمّلا البشرية. وبجديّة، وحزم، ومنهجية، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بإحدى حالاته المنفردة في عيادته، يضع العالم الجليل العجوز على عاتقه واجبَ البحث عن أسباب هذا الخلل في حضارتنا، عُصاب البشرية النّفسي هذا في الوقت الحاضر.

نعلم أنّ فرويد يبدأ أيّ تحليل نفسي دائما بالتّنقيب في الماضي: وكذلك يفعل مع الحضارة ذات الرّوح المريضة بإلقائه نظرة خلفية على الأشكال البدائية للمُجتمع البشري. في البداية، يرى فرويد ظهور إنسان ما قبل التّاريخ (بمعنى مَا، تتجسّد الحضارة في شكل رضيع)، كائن يجهل الأخلاق، العرف والقانون، حرّ وغير مقيّد تمامًا. بدافع من أنانيته التي لا يُعيقها أيّ شيء، يجد مصبّا لغرائزه العُدوانية في القتل وأكل لحوم البشر، ولغرائزه الجنسية مصبّا في الجنسية الشّمولية وسفاح القربى.

لكن، بمجرّد أن يكوّن هذا الإنسان البدائي مع أمثاله قطيعا أو عشيرة، حتّى يُضطر لإدراك وجود حدود لنهمه، حدود تُمثّلها مُقاومة رفاقه: كلّ حياة اجتماعية، حتّى في مستوياتها الأدنى، تشترط قيودًا. على الفرد أن يستسلم لاعتبار بعض الأمور ممنوعة؛ وتُأسّس عادات،

وحقوق، وأعراف ومواثيق مشتركة يستلزم أيّ خرقٍ أو تجاوز لها مُعاقبة. وسرعان ما تنتقل المعرفة بالمحظورات، والخوف من العقاب، التي هي كلّها في هذه المرحلة خارجيةً، شيئا فشيئا إلى الدّاخل، لتخلق في العقل الذي ظلّ إلى ذلك الحين عنيدا وحيوانيا هيئةً جديدة، "الأنا الأعلى"، جهازٌ إن صحّ القول مُنذرٌ يحذّر في الوقت المناسب بغرض عدم الخروج عن مسار العرف حتّى لا يقع في العقاب. مع "الأنا الأعلى"، الضّمير، تولد الثّقافة، وفي الآن ذاته الفكرة الدّينية.

إذ أنّ كلّ الحدود التي تفرضها الطّبيعة من الخارج على غريزة المتعة البشرية، البرد، المرض، الموت، الخوف الأعمى والبدائي، لا يمكن لهذا المخلوق إلّا اعتبارها قد أُرسِلت من قِبل خصم غير مرئي، من قبل "ربّ-أب" والذي لديه القدرة غير المحدودة على المُكافأة وعلى العقاب، ربّ الرّعب الذي ندين له بالعبودية والخضوع. إنّ الوجود المتخيّل لإلهٍ-أب، عليم وقادر على كلّ شيء - في الوقت ذاته مثال أعلى للأنا كتمثيل للقوّة الكاملة، وصورة مرعبة بصفته خالقا لكلّ المخاوف - يُبقي الوعي الذي يعيد الإنسان المتمرّد إلى داخل حدوده مُتيقّظًا؛ وبفضل هذا الكبت الذّاتي، وهذا التّنازل، وهذا الانضباط والانضباط الذاتي، يبدأ التّحضّر التّدريجي للكائن البربري.

من خلال توحيد قواها الشّديدة التّقاتل في الأصل، ومن خلال تخصيص نشاطٍ مشترك وإبداعي لها، بدلاً من إطلاقها ضد بعضها

البعض فقط في صراعات دموية وقاتلة، تزيد الإنسانية من مواهبها الأخلاقية والتّقنية وتنتزع تدريجياً لمثالها الأعلى، للرّب، جزءً كبيرا من قدرته. يُسجَن البرق، ويُستعبَد البرد، وتُقهَر المسافات، ويتمّ التّغلّب على خطر الحيوانات الضّارية بالأسلحة، كلّ العناصر: ماء، هواء، نار، تُخضّع تدريجياً للمُجتمع المتحضّر. بفضل قواها الخلّاقة المُنظَّمة، تصعد البشرية أعلى فأعلى على السّلم السّماوي نحو الألوهية، عشيقة القمم والهاوية، قاهرة الفضاء، مليئة بالعلم وتقريبا عليمة، هي التي انطلقت من الحيوانية، يمكنها اعتبار نفسها مساوية للرّب.

لكن وسط هذا الحلم الجميل لحضارةٍ خلّاقة للسّعادة الكونية، فرويد، كاسر الأوهام هذا الذي لا يُشفى-وتماما مثل "جان جاك روسو" قبله بأكثر من مائة وخمسين عامًا – يطرح السّؤال: لماذا، على الرّغم من هذا التّكافؤ مع الرّب، ليست البشرية أسعد وأكثر بهجة؟ لماذا لا يشعر بداخلنا الأنا العميق بالثّراء، والخلاص والنّجاة بفضل كلّ الانتصارات المُحضّرة للمجتمع؟ ويجيب على ذلك بنفسه، بقسوته العنيفة العنيدة: لأنّ هذا الإثراء عن طريق الثّقافة لم يُمنح لنا مجانًا، لكن يتم دفع ثمنه من خلال تقييد هائلٍ لحريّة غرائزنا. الوجه الآخر لكلّ مكسب حضاري للنّوع أو للجماعة هو فقدان السّعادة للفرد (ويُدافع فرويد دائمًا عن هذا الأخير).

يقابل تنامي الحضارة الإنسانية الجماعية تداعٍ في الحريّة، والقوّة العاطفية للنّفس الفردية. " إحساسنا الحالي بـ "الأنا" ما هو إلّا جزء مُنكمشٌ من شعور بعيد المدى، بل وعالمي، متوافق مع رابطة أوثق بين الأنا والعالم المُحيط". لقد تنازلنا عن الكثير من قوّتنا لصالح المُجتمع، والمُجتمع المحلي، بحيث لم تعد لغرائزنا البدائية، الجنسية والعدوانية وحدتها وقوّتها القديمتين. وكلّما تشتّت حياتنا النّفسية في قنوات ضيّقة، كلّما فقدت قوّتها الأوّلية السّيلية الغزيرة.

تضيّق وتضعف القيود الاجتماعية التي تزداد صرامةً مع المضيّ في القرون قوّتنا العاطفية، و "قد عانت كثيرا الحياة الجنسية للإنسان المتحضّر من ذلك. وتعطي أحيانا انطباعا بوظيفة في صدد الاضمحلال، مثلما يبدو أنّ دور بعضٍ من أعضائنا قد اضمحلّ، كأسناننا وشعرنا". لا تسمح روح الإنسان لنفسها أن تنخدع: فهي تعرف بطريقة غامضة أن الملذّات الجديدة والسّامية التي لا حصر لها، والتي من بينها الفنون والعلوم والتّقنية، تحاول يوميّا إيهامها، وتعلم أنّ استعباد الطّبيعة وعديد وسائل الرّاحة في الحياة قد كلّفها خسارة متعة أخرى، مطلقة أكثر، أكثر شراسة وطبيعيّة. بروحانية، يتذكّر شيءٌ ما بداخلنا، مختبئ بيُولوجيًا ربّما في متاهات الدّماغ، شيءٌ يحمله دمنا، تلكَ الحريّة الأسمى المرتبطة بحالتنا البدائية: لا تزال كلّ الغرائز التي تغلّبت عليها الثقافة منذ زمن- سفاح القربى،

قتل الوالدين، والجنسية الشّمولية - تسكن أحلامَنا ورغباتنا. حتى عند الطّفل الذي يُسهَر على رعايته وتدليله، والذي وُلِد دون صدمات ودون ألمٍ لأكثر الأمّهات ثقافةً، في غرفة عيادة مُدفّأة، ومضاءة بالكهرباء، ومطهّرة كما يجب، يستيقظ الإنسان البدائي القديم: وعليه أن يجوب بنفسه عبر آلاف السّنين كلّ الدّرجات التي تقوده إلى غريزة كبح الذّات المُذعِرة، عليه أن يعيش من جديد ويتألّم في جسده الصّغير النّامي كلّ تطوّر الحضارة.

وهكذا، تظل ذكرى الأوتوقراطية القديمة غير قابلة للتّدمير بداخل كلّ واحدٍ منّا، وفي بعض الأحيان، يتوق "الأنا الأخلاقي" ويشعر بالحنين المجنون للفوضوية، للحرّية المتنقّلة كالبدو الرّحل وحيوانيةِ بداياتنا. في حيويتنا، يتوازن كل من الخسارة والرّبح دائما، وكلّما ازدادت الهوّة بين القيود المُتنامية التي يفرضها المجتمع والحرية البدائية، كلّما ازداد انعدام الثّقة في الرّوح الفردية؛ لنتساءل ما إن لم تكن، في الأساس، قد سُرقت وحُرمت بسبب التّقدم، وإن كانت إضافة الطّابع الاجتماعي للأنا يحبطها في "أناها" الأعمق.

يتابع فرويد: هل ستنجح البشرية يومًا ما، من خلال سعيها إلى اختراق المُستقبل، في السّيطرة النّهائية على هذا القلق، هذه الازدواجية، تمزّق الرّوح هذا؟ مُرتبكة، ومتردّدة بين الخوف من الرّب والمتعة الحيوانية، تعيقها المحظورات، يثقلها عُصاب الدّين،

هل ستجد مخرجا لمعضلة حضارتها هذه؟ ألن تخضع أخيرا طوعا القّوتان الأصليتان، الغريزة العدوانية والغريزة الجنسية، إلى التّعقّل الأخلاقي؛ ألن نتمكّن نهائيا من إزاحة "النّظرية النّفعية" للرّب الذي يحكم ويعاقب على أساس أنّها غير مجدية؟ هل سيتجاوز المستقبل - لاستعارة أسلوب المحلّل- هذا الصّراعَ العاطفي الأكثر سريّة بوضعه تحت ضوء الوعي؟ هل سيُشفى أبداً؟

سؤال خطير. لأنّه ومن خلال التّساؤل فيما إذا كان بإمكان العقل أن يصبح سيّد حياتنا الغرائزية، يجد فرويد نفسه مدفوعًا إلى صراع مأساوي. من ناحية، كما نعلم، ينفي التّحليل النّفسي هيمنة العقل على اللّاوعي: "البشر، يقول، لا يتأثّرون كثيرا بحجج العقل، غرائزهم هي التي تحرّكهم"، ومع ذلك، هو يؤكّد، من ناحية أُخرى: "أنّنا لا نملك وسيلة أخرى غير ذكائنا لنسيطر على حياتنا الغريزية". كعقيدة فكرية، يحارب التّحليل النّفسي من أجل هيمنة الغرائز واللاوعي؛ وكمنهجية تطبيقية، يرى في العقل الوسيلة الوحيدة لخلاص الانسان، وبالتّالي خلاص البشرية. منذ مدّة يخفي التّحليل النّفسي في أعماقه هذا التّناقض السّري؛ الآن، يتضخّم المشكل كلّما نُظِر فيه: يتوجّب على فرويد أن يتّخذ قرارًا نهائيا؛ وبالضّبط هنا، في مجال الفلسفة، حيث عليه أن يختار بين غلبة العقل وغلبة الغريزة.

لكنّ بالنّسبة له، هو الذي لا يعرف الكذب، ودائما يرفض أن يكذب

على نفسه، هذا الاختيار غاية في الصّعوبة. كيف له أن يحسم؟ بنظرة مضطربة، رأى الرّجل العجوز للتّو نظريته عن هيمنة الغرائز على العقل تتأكّد بذُهان الحرب العالمية الجماعي: أبدا لم ندرك بمثل هذه الكارثية، وخلال الأربع سنوات المدمّرة كم رقيقةٌ هي طبقة التّحضر التي تُخفي عنف غرائزنا الدّموية، وكم يكفي لاندفاعٍ وحيد للّاوعي لهدم كلّ صروح الرّوح الجريئة، وكلّ معابد الأخلاق. لقد رأى كيف تمّت التّضحّية بالدّين والثّقافة وكلّ ما يرفع من حياة الإنسان الواعية ليجعلها نبيلة، في سبيل متعة الدّمار الوحشية والبدائية؛ وجدت كلّ القوى السّامية والمقدّسة نفسها مرّة أخرى بضعف طفولي أمام غريزة الإنسان البدائي العمياء المتعطّشة للدّم. ورغم ذلك، شيء ما بداخل فرويد يرفض أن يعترف بإخفاق الإنسانية الأخلاقي على كونه نهائيًّا.

إذن، ما الفائدة من العقل، ما فائدة خدمته هو العلمَ والحقيقة طيلة عقودٍ، لو أنّ كلّ صحوة ضمير للإنسانية عليها أن تبقى في نهاية المطاف رغم كلّ شيء عاجزة ضدّ لاوعيها؟ بصدق لا يفسده أيّ شيء، لا يتجرّأ فرويد لا على إنكار القوّة الفعّالة للعقل، ولا قوة الغريزة التي يستحيل توقّعها. لذا، ليحسم الموضوع، يجيب نفسَه على السّؤال الذي طرحه بحذر-آخذا بعين الاعتبار بذلك "مملكةً ثالثةً" للرّوح- بـ"ربّما"، "أو ربّما في يوم بعيد جدّا"، لأنّه لا يريد، بعد هذه الرّحلة التي جاءت متأخّرة، أن يرجع إلى ذاته دون أدنى مواساة.

إنّه لأمر مؤثّر سماع صوته الذي كان شديد القسوة يصبح تصالحيًا ولطيفًا، عندما يريد الآن في نهاية حياته أن يُظهر للإنسانية بصيصًا صغيرًا من الأمل عند نهاية الطّريق: "يمكننا الاستمرار في القول على صواب أنّ العقل البشري ضعيف بالمقارنة مع الغرائز. لكنّ هذا الضّعف شيء غريب، صحيح أنّ صوت العقل خافت، لكنّه لن يتوقّف ما لم يُسمَع. وفي النّهاية، وبعد العديد من الإخفاقات، سينجح رغم كلّ شيء. وهي من النّقاط النّادرة التي يسعنا التّفاؤل بها لمستقبل البشرية، لكنّه بحدّ ذاته لا يعني القليل. ربّما سيجد بدائي الفكر حقًا في منطقةٍ نائية حقًا، لكن يبقى الوصول إليها مُمكنا".

هذه هنا كلمات رائعة. لكنّ لهيب الشّمعة في الظّلام الذي يومض رغم ذلك من بعيد ضبابي ضئيل، لدرجة لا تسمح للرّوح المتسائلة أن تستدفئ به. ما كُلُّ "احتمالٍ" سوى مواساة صغيرة، ولا يمكن لأيّ "ربّما" أن تروي عطش الذي لا يرتوي لإيمانٍ بيقين سام. نجد أنفسنا هنا أمام حدود التّحليل النّفسي التي لا يمكن تجاوزها: المكان الذي تبدأ منه مملكة المعتقدات الدّاخلية، والثّقة المبدعة الخلّاقة، تنتهي عنده قوّته، كاسرٌ للأوهام عن وعي، وعدوٌّ لكلّ سراب، هو لا يملك أجنحة تمكّنه من بلوغ تلك المناطق الشّاهقة. علمٌ موضوعه الفرد حصريا، للرّوح الفردية، لا يعرف شيئا ولا يريد أن يعرف شيئا عن المعنى الجماعي، أو عن رسالةٍ ميتافيزيقية للإنسانية: لهذا السّبب

هو فقط يلقي الضّوء على الحقائق النّفسية، عاجزا عن بثّ الدّفء في الرّوح البشرية. لا يُمكنه سوى أن يمنح الصّحة، لكنّ الصّحة وحدها لا تكفي. لتسعد وتزدهر، تحتاج الإنسانية أن تُدعَّم باستمرار بإيمانٍ يمنح معنى لحياتها.

ولا يلجأ التّحليل النّفسي لا لعفيون الدّيانات، ولا للنّشوة المسكِرة لوعود نيتشه الجياشّة العواطف، هو لا يؤكّد، ولا يعد بشيء، يُفضّل التزام الصّمت على المواساة. هذا الصّدق، وليد عقل فرويد الصّارم والمخلص، مثيرٌ للإعجاب من وجهة نظر أخلاقية. لكن يمتزج الشّيء الذي يتكوّن من الحقيقة حصريا بالمرارة والتّشكيك، ويحلّق نوع من الظلّ المأساوي على ما هو مجرّد عقلنة وتحليل حصريا. لا يمكن إنكار وجود شيءٍ في التّحليل النفسي يقوّض كلّ ما هو إلهي، شيءٌ بمذاق التّراب والرّماد؛ مثل كلّ ما هو بشري حصريا، هو لا يجعل المرء حرّا ولا سعيدا؛ يمكن للصّدق أن يثري العقل بطريقة رائعة، لكن أبدًا لن يرضي العاطفة بشكلٍ كامل، وأبدًا لن يعلّم الإنسانية كيف "تتجاوز ذاتها"، والتي هي الرّضا الأسمى، والأكثر ضرورية. لا يمكن للإنسان -ومن أثبت ذلك بطريقة رائعة غير فرويد؟ - حتّى في المعنى الحسّي أن يعيش دون حلم، وإلّا لانفجر جسده الضّعيف تحت ضغوطات العواطف غير المحقَّقة؛ كيف يمكن لروح البشرية حينها أن تتحمّل الوجود دون أملٍ في وجودِ معنى أسمى، دون أحلامِ الإيمان.

لهذا السّبب، يمكن لأيّ علم أن يبرهن لها ما شاء عن صبيانية الخلق الإلهي، لكنّها دائما، كي لا تسقط في العدمية، تريد سعادتها الخلّاقة أن تمنح للكون معنى جديد، فالسّعادة النّابعة من الاجتهاد هي في حدّ ذاتها المعنى الأعمق لكلّ حياة روحية بالفعل.

الحكمة الواضحة، الصّرامة، واقعية التّحليل النّفسي، كلّها أشياء لا تُعتبر غذاءً بالنّسبة للنّفس المتعطّشة للإيمان. كلّ ما يضيفه هو تجارب لا أكثر، يمكنه أن يقدّم شروحات عن الحقائق، لكن ليس عن الكون، كونّ لا يُعطيه في مفهومه أيّ معنى. وهذه هي حدوده. لقد عرف التّحليل أفضل من أيّ طريقة روحية أخرى كيف يقرّب الإنسان من "أناه"، لكن لم يعرف كيف يخرجه من هذه "الأنا" -وهو الشّيء الضّروري من أجل إرضاء كامل- هو يحلّل، يَفْصِل، يُقسّم، يُظهِر لكلّ حياة معناها المتفرّد، لكنّه عاجز عن تجميع تلك الآلاف من الأجزاء ليعطيها معنى مشتركًا. ليكون فعلا خلّاقا مُبدعا، على فكره الذي يُنير ويجزّئ أن يُكمَّل بفكرٍ آخرَ يجمع ويدمج، -بعد التّحليل النّفسي، الدّمج النّفسي- شيء قد يكون ربّما علمًا من علوم المستقبل. مهما كان الدّرب الذي سلكه فرويد، فأبعد منه تبقى فضاءات واسعة تنتظر، لم تكتشف بعد. الآن، وقد أظهر فنّ التّفسير الذي يمتلكه المحلّل النّفسي للرّوح العوائقَ السّرية التي توقف تطوّرها، بإمكان فنون أخرى أن تعلّمها كيفية الخروج من ذاتها لتنضمّ إلى "الكلّ الكوني".

«الفرد المولود من الواحد، ومن المُتعدّد والذي، منذ ولادته، يحمل بذاته المُعَرّفَ وغير المُعَرّف بالقَدْرِ نفسه- لا نريد إطلاقا تركه يتلاشى في اللّامحدود قبل أن نكون قد راجعنا جميعَ فئاته للتّجسدّات التي تُعتَبر الحالات الوسيطة بين الواحد والمُتعدِّد"

أفلاطون

صلاحية على مرّ الزّمن

حدَث اكتشافان -يعدّ تزامنهما بالغ الرّمزية- في العقد الأخير من القرن التّاسع عشر: في فورتسبورغ، يثبت عالم فيزيائي غير معروف، يُدعى فيلهلم رونتغن، بتجربة غير متوقّعة إمكانيةَ الرّؤية من خلال جسد الإنسان الذي كان يُعتبَر إلى غاية ذلك الحين منيعا. في فيينا، يكتشف طبيب غير معروف أيضًا، سيغموند فرويد، نفس الإمكانية بالنّسبة للرّوح. لم تغيّر الطّريقتان منهجيّة علمَيْهما فحسب، بل خصّبتا جميع المجالات المُجاورة؛ من خلال تقاطع رائع، يستفيد الطّبيب من اكتشاف الفيزيائي، ويثري اكتشافُ الطّبيب لعلم النّفس الفيزيائي عقيدةَ قِوى الرّوح.

بفضل اكتشاف فرويد العظيم، والذي لا تزال نتائجه للآن لم تُستنفَذ بعد، تجاوز علم النّفس العلمي أخيرا حدود خصوصيته الأكاديمية والنّظرية، ودخل في الحياة العملية. بفضله، أصبح علم النّفس لأوّل مرّة قابلًا للتّطبيق على كلّ ما أبدعه العقل. ما الذي كان عليه علم النّفس من قبل؟ مادّة دراسية، علم نظري خاص، سجين الجامعات والمعاهد والمحاضرات، لم ينتج سوى كتب صيغها لا تُقرأ،

ولا تُطاق؛ علمٌ لا يعرف مُتعلّمه أيّ شيء عن نفسه، عن قوانينه الفردية، كما لو كان يدرس اللّغة السّنسكريتية أو علم الفلك، كما اعتبر عامّة النّاس، بحدس سليم، النّتائجَ المخبرية بلا تأثير، لكونها تجريديّة بالكامل. من خلال تحويل دراسة الرّوح بحركة حاسمة من النّظرية البحتة إلى الفردية، ومن خلال جعل تبلور الشّخصية موضوعًا للبحث، نقل فرويد علم النّفس الأكاديمي إلى الواقع، وجعله ذا أهميّة حيوية للإنسان، لأنّه أصبح تطبيقيا. الآن فقط، يستطيع علم النفس أن يُساعد علم التّربية في تكوين الإنسان النّامي، أن يتعاون على شفاء المريض؛ أن يساعد في الحكم على الضّال في العدالة؛ أن يُفهِم الإبداع الفنّي، وفي الوقت نفسه يسعى ليشرح لكلّ فرد فرديتّه، وليساعد الجميع. فالّذي تعلّم كيفية فهمِ الإنسان بداخلِه هو، سيفهم الإنسان المتواجدَ بداخل جميع البشر.

من خلال توجيه علم النّفس بهذه الطّريقة نحو الرّوح الفردية، خلّص فرويد بطريقة غير واعية أعمقَ إرادة في تلك الفترة. لم يكن الإنسان أبدًا فضوليا إلى ذلك الحدّ بالأنا الخاصّ به، بشخصيته، كما هو الحال في قرننا هذا الذي تزداد فيه رتابة الحياة الخارجية أكثر فأكثر. يوحّد قرنُ التّكنولوجيا بشكلٍ متزايد، وينتزع الطّابعَ الفردي من المرء ليصنع منه شخصًا بلا ألوان؛ يتقاضى الرّاتب نفسه حسب الفئة التي ينتمي إليها، يسكن المنازل نفسها، يرتدي الملابس نفسها،

ويعمل في التّوقيت نفسه، على الآلة نفسها، ثم يلجأ إلى نوع التّسلية نفسها، أمام المذياع نفسه، والقرص الصّوتي نفسه، يمارس الألعاب الرّياضية نفسها، أصبح البشر من النّاحية الخارجية، وبطريقة مُرعبة، أكثر فأكثر تشابها؛ وأصبحت مدنهم بطرقاتها المتشابهة أقل إثارة للاهتمام؛ أصبحت الأمم أكثر فأكثر تجانسًا؛ تلغي بوتقةُ التّبرير الهائلة كلَّ الاختلافات الظّاهرة.

وبينما المظهر الخارجي منحوت على الشّاكلة نفسها بتزايد، ويُصنّف البشر بالعشرات وفق النّمط الجماعي، ووسط تبدّد الطّابع الفردي لأنماط الحياة، أصبح كلّ فرد يُقدّر أكثر فأكثر أهميّة الطّبقة الحيوية الوحيدة من كيانه التي تبقى بعيدة المنال، والتي تُفلِت من تأثير الحيّز الخارجي: ألا وهي شخصيّته الفريدة، والتي يستحيل استنساخها. لقد أصبح المقياسَ الأسمى، وتقريبا الوحيد للإنسان، وليس من قبيل الصّدف أن تهبّ الآن جميع الفنون والعلوم لخدمة علم الطّباع بشغف شديد. نظرية الأنماط، علم الأنساب، نظرية الوراثة، الأبحاث في مجال نظرية الوظيفية الدّورية الفردية، تسعى كلّها دائما لفصل الخصوصي عن العام؛ في الأدب يعمّق أدب السّيرة علمَ الشّخصية، طرق التّفحص في الفراسة النّفسية، مثل علم التّنجيم، وقراءة الكف، وعلم دراسة الخط، علوم نظنّها ماتت منذ أزل، فإذا بها تزدهر في أيّامنا هذه بطريقة غير متوقّعة. من بين جميع ألغاز

الوجود، ما من لغز يهمّ الإنسان بقدر اكتشافات عن كيانه وعن تطوّره الشّخصي، والظّروف الخاصّة والميّزات الفريدة لشخصيّته.

أعاد فرويد علم النّفس الذي أصبح تجريديا إلى قلب الحياة الدّاخلي النّابض. لأوّل مرّة، وقد بلغ بذلك عظمةً شعريةً، طوّر العُنصرَ الدّرامي لتبلور الشّخصية البشرية، هذا الخلط المتوهّج والمُلِحّ المضطرب في عالم الشّفق بين الواعي واللّاوعي، حيث تُحدِث أصغر النّبضات أعظمَ التّأثيرات، وحيث يرتبط الماضي بالحاضر في أحد أكثر التّشابكات روعةً وتفرّدا، كونٌ بأسره في الفضاء الضّيق لمسرى الدّم في الجسد، يستحيل استيعابه بنظرة في مجمله، وفي الوقت ذاته خلّاب عندما ننظر إليه باستمتاع، كعملٍ فنّي، في توافقه الغامض الذي لا يُسبَرُ مع القوانين الدّاخلية.

لكن القوانين التي تتحكّم في الإنسان - وهذا هو التّغيير الجذري الحاسم الذي أتى به تعليمه- لا يمكن أبدًا الحكم عليها وفقًا لنمط عام، يجب أن تُختَبر وتُجرّب ليُعترَف بها بعد ذلك كقِيَم فريدة. لا يمكننا فهم شخصية من خلال معادلة جامدة، ولكن فقط وحصريا من خلال شكل مصيرها، النّاتج عن حياتها الخاصّة: ولهذا السّبب فكلّ علاج، كلّ مساعدة نفسية تفترض قبل أيّ شيء عند فرويد علما، وبالأخصّ علما تأكيديا، متعاطفا، وبذلك يكون فعلا حدسيا. بالنّسبة له، المنطلق الحتمي لكلّ علم، ولكلّ طبّ نفسيّ هو احترام الشّخصية،

هذا "الغموض المكشوف"، بالمعنى الذي يعطيه له "جوته"، هذا الاحترام، علّم فرويد، كما لم يفعل أيّ شخص آخر سواه، أن يُقدّس كوصيّة أخلاقية. عن طريقه وحده، فهم الآلاف ومئات الآلاف لأوّل مرّة هشاشة الرّوح وقابليّتها للتّأثر وضعفها، ولا سيما الرّوح الطّفولية؛ وعند رؤية الجراح التي كشف عنها، بدأوا يدركون أن أيّ حركة فظّة، وكلّ تدخّل عنيف (قد يكفي أحيانًا أن يكون هذا مجرّد كلمة واحدة) في هذه المادّة الشّديدة التّأثّر، والموهوبة بقُدْرَة تَذَكُّرٍ غامضة، يمكنه أن يهدّم قَدَرًا، حياةً؛ وأنّه وكنتيجة لذلك، كلّ تهديد، كلّ حظر، أو عقوبة أو تأديب طائش يُثقل كاهل فاعلها بمسؤولية لم تكن معروفة حتّى ذلك الحين.

احترام الشّخصية حتّى في أخطائها، هو المفهوم الذي أدخله فرويد بشكل عميق في الوعي الحاضر، في المدرسة، والكنيسة، والمحكمة، في ملاجئ الصّرامة هاته؛ من خلال هذه الرّؤية الأوضح لقوانين عالم النّفس، نشر في العالم قدرًا أكبر من اللّطف والتّسامح. فنّ فهم الأفراد لبعضهم البعض، الشّيء الأهمّ في العلاقات البشرية، والذي أصبح ضروريا أكثر فأكثر بين الأمم، الوحيد باختصار الذي بإمكانه مساعدتنا على بناء إنسانية أسمى، هذا الفن لم يستفد بأيّ طريقة حديثة في مجال النّفس بقدر ما استفاد من مفهوم فرويد عن الشّخصية؛ بفضل فرويد، أدركنا لأول مرّة وبمعنى جديد ونشط،

أهميّة الفرد، والقيمة الفريدة التي يستحيل تعويضها لكلّ روح بشرية.

لا يوجد في أوروبا، وفي أيّ مجال من المجالات سواء كان في الفنّ أو البحث أو العلوم الحيّة رجل واحد مُهمّ لم تتأثّر مفاهيمه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بإرادته أو غصبا عنه، وبطريقة خلّاقة إبداعية بأفكار فرويد: في كلّ مكان، بلغ هذا الرّجل الوحيدُ مركزَ الحياة، والمتمثّلِ في الإنسان.

وبينما يستمر المختصّون في عنادهم غير متقبّلين لهذا العمل لهذا العمل، بسبب عدم توافقه بصرامةٍ مع معايير التّعليم الطّبي، الفلسفي أو أيّ شيء آخر، بينما يتجادل العلماء "الرّسميون" بغضب بسبب تفاصيل وغايات، أثبت فرويد ومنذ مدّة طويلة وجهة نظره، وبرهن له الزّمن صحّتها في المعنى الخلّاق، وفق كلمة جوته التي لا تُنسى: "فقط ما هو خصبٌ صحيح".

فهرس المحتويات



للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

زوروا موقعنا الإلكتروني

www.ibda3eg.com

info@ibda3eg.com

publishing@ibda3eg.com

dreidibrahim@gmail.com



سيغموند فرويد

عندما يتحدّث أحد أكبر أقلام القرن العشرين، عن مؤسّس علم النّفس الحديث، والأب الرّوحي للتّحليل النّفسي، يحلّ بالنّفس هدوءٌ وتأتي الأفكار انسيابية واضحة، دقيقة، جميلة وهادفة.

في هذه السّيرة الأدبية التي لا تُعنى بالتّواريخ والتّفاصيل الأكاديمية، بقدر اهتمامها بأعماق الرّوح وخبايا الفكر، يأخذنا ستيفان زفايغ لنطرق باب صديقه سيغموند فرويد، منذ انطلاقته الأولى وثورته في وجه قانون الصّمت آنذاك، لنرافقه في مسيرة كفاح دامت أكثر من خمسين سنة كرّسها لعلم كان عليه أن يبتكره من العدم. من أجل فهم الأمور، يجب العودة دائما للبدايات، فالحاضر غرس الماضي، والأنا نتاجُ صراعٍ للحياة داخل الفرد المُتخبّط بين الوعي واللاوعي.




9 789777 793520

